الصراع بين الحق والباطل

في ضوء سورة الكهف: دراسة عامة

تأليف
الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

تعريب
د. محمد فرمان الندوي

ملتزم الطبع والنشر
المجمع الإسلامي العلمي
ندوة العلماء، لكناؤ (الهند)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

من مطبوعات المجمع الإسلامي العلمي
لكناؤ (الهند) (رقم: ٤٢٠)

الطبعة الأولى
١٤٤٧هـ الموافق ٢٠٢٦م

اسم الكتاب	:	**الصراع بين الحق والباطل**
المؤلف	:	**السيد محمد الرابع الحسني الندوي**
المعرب	:	**د. محمد فرمان الندوي**
الصفحات	:	**١٧٦**
عدد النسخ	:	**١١٠٠**
السعر	:	***150/-***
اهتم بالطبع	:	**عبد الكريم الصديقي الندوي**

9452125145 / aksmatloob1986@gmail.com

يطلب الكتاب من:

المكتبة الندوية، ندوة العلماء، لكناؤ
مكتبة الشباب العلمية، مكارم نغر، لكناؤ
مكتبة إحسان، مكارم نغر، لكناؤ

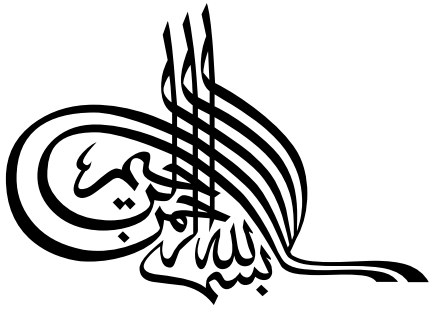
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب :٢٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بقلم: الشيخ السيد بلال عبد الحي الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء، لكناؤ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد!

فإن القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تبقى إلى يوم القيامة، وقد أنزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم لهداية الناس أجمعين، فلم يتطرق إليه تغيير، ولن يكون ذلك بإذن الله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

حاول الأعداء مرارًا وتكرارًا في تحريفه، لكن لم يتمكنوا منه، ولم يقدموا آيةً مثل آيات القرآن الكريم، رغم أن الله تعالى تحداهم في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، وقد عجز عن ذلك

---

[1] القرآن الكريم، سورة الحجر، الآية: ٩.

أدباء القرن الأول الذين كانوا يعتزون بلغتهم، وكانوا يعاندون القرآن كل المعاندة، وأبرز دليل على صدق القرآن أنه مصون ومحفوظ من كل تحريف وتبديل حتى حرف أو نقطة منذ أربعة عشر قرنًا كما أنزله الله تعالى، وقد اعترف به جميع الناس أعداؤهم وأصدقاؤهم، خاصتهم وعامتهم، لكن هناك عنادًا وعداوةً تحجبهم عن الهداية وتحرمهم من الإيمان.

لا شك أن القرآن دستور للحياة ومفتاح رئيسي لها، تنفتح منه جميع الأقفال والأبواب المغلقة، ويصل الإنسان إلى غايته المنشودة، هذا لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فالذين كان على قلوبهم أكنة يشهد القرآن عنهم قائلاً: صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

ومن يهديهم الله تعالى يرزقهم فهم القرآن الكريم أيضًا، وللفهم درجات، فهناك فهم عام يدرك كثيرًا من المعاني القرآنية كل من يعرف اللغة العربية، لكن عمق الفهم لا يناله إلا عباد الله الخاصة ويصدق عليهم قول الله تعالى: وفوق كل ذي علم عليم.

كما يحتاج فهم القرآن الكريم إلى معرفة دقائق اللغة العربية كذلك يحتاج إلى معرفة علوم ومعارف كثيرة، وقد عدَّها المفسرون حوالي خمسة عشر علمًا، ويساعد التاريخ والجغرافيا على فهم القرآن الكريم، مثال ذلك أن سورة قريش ذكرت فيها رحلات الشتاء والصيف، فالذي لا يعرف التاريخ لا يمكن أن يدرك مدلولات هذه السورة الكريمة.

وأكبر شرط لفهم القرآن الكريم هو علم الحديث، فالفهم المعتبر لدى الشريعة هو ما يوافق الحديث النبوي، وإلا كان هذا الفهم نوعًا من الاستبداد بالرأي، وهو مذموم شرعًا، كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مثالاً عمليًا للقرآن، فمثّل رسول الله صلى الله عليه وسلم أصوله ومبادئه بحياته المباركة، وهو باب مشرق للشريعة الإسلامية، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن[1].

فالتفسير العملي لأحكام القرآن ومواضيعه حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، لا يمكن فصل القرآن الكريم عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في أي مرحلة من مراحل الحياة، والذين يفصلون القرآن عن السيرة الطيبة أو يريدون أن يفصلوا يغمطون حق الدين والشريعة، فمن ضلالات العصر الحديث أنه قد انقلب الأمر رأسًا على عقب، فهناك أناس يعرضون القرآن حسب هواهم، بقطع صلته بالسيرة الطيبة، وأناس آخرون يعتبرون القرآن أساس الدين، ويتحاشون عن الحديث النبوي، فهؤلاء هم الذين لا يعرفون الدين، وكل ما يأتي أمامهم يفهمونه كامل الدين، فيضلون، ويُضلون الآخرين.

القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو كتاب تربية وتوجيه،

---

[1] مسند الإمام أحمد: ٢٦٠٤٤.

فإنه خاطب الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم مرارًا بتربية أمة مثالية، وأكرمه بتوجيهات وهدايات كما نشأ في ضوئها الصحابة الكرام رضي الله عنهم، اعتبروا أساتذة العالم وقادته، هذا في جانب، وفي جانب آخر ذكرت في القرآن الكريم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وخصائصه ومحاسنه، لتكون الأمة الإسلامية قدوةً للإنسانية جمعاء بالعمل بها، لذلك ذكرت بكل وضوح في القرآن حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم التي لا يتنازل عنها الأمة، ويعتبر فهمها ومعرفتها علامة الإيمان، ولا يكون المؤمن مؤمنًا حقيقيًا بدونها، وتناول القرآن علاقة الرسول بالقرآن الكريم في آياته وسوره، لا يمكن فصل أحدهما من الآخر، فاتضح أن باب فهم القرآن لا ينفتح بدون السيرة الطيبة والسنة النبوية، والذي يتدبر القرآن بعقله المادي ينزلق انزلاقًا بحيث يجعل القرآن تابعًا لهواه، ويكون مصداقًا لقوله تعالى: يضل به كثيرًا.

من أبواب فهم القرآن الكريم صحبة الرجال الذين قضوا أعمارهم في خدمة القرآن الكريم، الذين رزقوا هذا التوفيق تنكشف أمامهم أبواب من الحقائق والمعارف الإلهية، وكان عمنا الكبير الشيخ السيد محمد الرابع الحسني الندوي رحمه الله من العلماء الموفقين الربانيين، الذين نالوا صحبة الشخصيات القرآنية، وكان لهم ذوق خاص بالقرآن الكريم، فكان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي إذا تليت آيات القرآن الكريم أمامه

تأثر بها للغاية، فقد ظل طول حياته رائد الأمة الإسلامية، رحمه الله رحمة واسعة.

كان الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي يحمل ذوقًا قرآنيًا خاصًا، وقد اعترف به الباحث الشهير الدكتور يسين مظهر الصديقي الندوي، الذي قرأ عليه تفسير القرآن الكريم وكان يشهد بذلك.

ظل دأب دروس القرآن الكريم في شهر رمضان منذ زمن الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي في زاوية الشيخ علم الله الحسني، وكان الإمام الندوي لا يزال يدرِّس القرآن الكريم في شهر رمضان منذ خمسة عشر عامًا من آخر أيام حياته، فواصل هذه السلسلة الشيخ السيد محمد الرابع الحسني النبي بعد وفاة الإمام الندوي، هكذا تم إلقاء دروس أكثر أجزاء القرآن الكريم، ومن أبرز مزايا هذه الدروس أنه يكون شرح وبيان للألفاظ والمعاني القرآنية، فكان ذلك نافعًا للعامة والخاصة.

مما يسرنا أن الأخ العزيز محمد أرمغان الندوي البدايوني قد نقل هذه الدروس، وقد نشرت دروس ثلاث سور أمثال سورة الحجرات باسم: المجتمع الإسلامي، وسورة الأنبياء باسم: حياة الإيمان والاحتساب، وسورة يوسف باسم: حياة الصبر والتقوى، وهذه سورة رابعة: سورة الكهف، تنشر دروسها باسم الصراع بين الحق والباطل، وقد بذل في ذلك الأخ المذكور كثيرًا، نقل أولا هذه الدروس من الشريط، ثم وضع عناوين

جوانبه، وعمل كل ذلك احتسابًا، وابتغاءً لمرضاة الله، بارك الله في أعمال الأخ المذكور، ورحم صاحب الدروس رحمة واسعة، وجعل هذه الدروس نافعةً للجميع، لقد نقل هذه الدروس إلى العربية الأستاذ محمد فرمان الندوي مدير تحرير مجلة البعث الإسلامي، ونشرها تباعا، وقد أشرف على ترجمته أستاذنا الكبير الشيخ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي أطال الله بقاءه، فندعو للأخ المترجم بالخير والتوفيق والسداد.

وصلى الله على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

بلال عبد الحي الحسني الندوي

ندوة العلماء لكناؤ

١٤٤٧/٣/٣٠

٢٠٢٥/٩/٢٣

الصراع بين الحق والباطل

في ضوء سورة الكهف: دراسة عامة

فضائل سورة الكهف:

وردت فضائل سورة الكهف في الحديث النبوي، وهي تشير إلى تلاوتها يوم الجمعة بكل اهتمام، قال صلى الله عليه وسلم: من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور فيما بينه وبين البيت العتيق[١]، وجاء في حديث آخر أن سورة الكهف تعصم الإنسان من فتنة الدجال، قال صلى الله عليه وسلم: من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال[٢].

بين الكهف والغار:

الكهف مكان متسع للسكن، ومفتوح في الجبل، بحيث يسكن فيه الإنسان، وبنيت فيه حجرة يُعرف بالكهف، أما الفجوة الغائرة غير المنتظمة التي تكون في الجبل، يستظل منها الإنسان، ويأوي إليها وقت الحاجة، فتعرف بالغار، ويكون الطريق إلى هذا الغار معوجًا، ولا يكون مستقيمًا، لأن الجبل تكثر فيه الوهاد

---

[١] سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل سورة الكهف: ٣٤٧٠.

[٢] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف: ١٩١٩.

والنجاد، وتكون فيه مغارات ومدخلات، ومن هذا القبيل غار ثور وغار حراء في مكة المكرمة.

غاية قصص القرآن:

لم تُذكر قصص القرآن الكريم للاطلاع على شيئ جديد، ولنبأ خارق أو كأسطورة من الأساطير، بل لها علاقة وطيدة بالحياة الإنسانية، علاقة لا تتقيد بوقت محدود، بل تتسع هذه العلاقة إلى آخر حياة الإنسان، وتكون هذه القصص مثالاً له إلى الموت، ويمكن أن تعود مثل هذه الظروف في كل زمن بعد قصة أصحاب الكهف، فيستنير الإنسان فيها قبسات من هذه السورة، لأنه يمر بأحوال مضادة في حياته، تارةً بالسراء، وأخرى بالضراء، فأمثال هذه القصص تهدي الإنسان إلى المنهج القويم في الحياة الإنسانية.

حكمة قصص سورة الكهف:

كانت قصة أصحاب الكهف عند اليهود أكثر شهرةً، وذلك بأسلوب خاص، وقد حرَّض اليهود مشركي مكة لاختبار محمد (صلى الله عليه وسلم)، لأن يسألوه عن أصحاب الكهف، وكان اليهود يعرفون أن محمدًا أمي، فيكون غافلاً عن هذه القصة، وإذا سأله المشركون فلا يمكن أن يجيب عنها، فيفتضح أمام الناس، لكن الله تعالى ذكر في هذه السورة قصة أصحاب الكهف بكاملها، فحكى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمامهم، إن قصة أصحاب الكهف فارق بين المادية والروح، ذكر الله فيها قصة جماعة،

استماتت في سبيل الله تعالى، وتركت وطنها واختفت بالغار، صيانةً لإيمانها وعقيدتها.

وردت في هذه السورة قصص أخرى، منها قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى والخضر عليهما السلام، وقصة ذي القرنين، وقصة صاحب الجنتين، ولم يكن وراء هذه القصص غرض إلا ليعرف الإنسان الفرق بين الأسباب ومسبب الأسباب، وبين الغاية والوسائل، جعل الله تعالى في هذه الدنيا نظامًا تكوينيًا، فكما أن الماء يسيل إلى أسفل مكان لا إلى أعلاه، كذلك يجري نظام العالم تحت حكمة إلهية، ويُخيل أحيانًا إلى الإنسان أن التدبير هو الأصل وراء هذا النظام، وليس أمامه حقيقة ظاهرة، هذا ما كشفه الله تعالى في هذه السورة، وفي هذه السورة وردت قصص تدل على أن الله يغير شيئًا في نظام العالم، عبرةً لأولي الأبصار، وتكون وراء هذا التغير غاية دينية، ليعلم الإنسان أن الله تعالى يغير في نظام الدنيا لمصلحة دينية.

كان صاحب الجنتين في هذه السورة يبخل بماله، ولا يعطي الفقراء حقوقهم، فطاف على جنته طائف من السماء وأحيط بثمرها، ولا شك أن الله يذيق عباده العصاة من العذاب الأدنى قبل العذاب الأكبر، ويكون معنى العذاب عقابًا، أو أذىً، فتهدف بعض الأزمات في الدنيا للاتعاظ وإيقاظ الناس من غفلتهم، فينبه الله الإنسان على اختياره طريق الضلال، ويجعل له نظامًا تكوينيًا، فمثلاً يكون الإنسان بعض الأحيان مريضًا، أو مبتلى بحوادث فيكون من

ورائها التنبيه والزجر من معاصيه، وقد كان عقاب صاحب الجنتين من إهلاك حرثه ليتوب إلى الله تعالى، ويتأسف على ما فعل.

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصصًا خارقةً للعادة، وليس لأي إنسان قدرة فيها، ويتفكر الإنسان أيضًا فيها فيتضح منها ضعفه واستكانته، وأن الله قادر مقدر لها قبل وقوعها، فأحيانًا ينزل أشياء، ويجعل الإنسان يعمل فيها بوسائله، فيكون حيرانًا، ذلك ليعلم أن كل شيئ بيد الله تعالى، ويفعل ما يشاء.

قصص سورة الكهف تشتمل على ظواهر الحياة الإنسانية:

إن قصص سورة الكهف تحيط بجميع مراحل الحياة الإنسانية، وهذه المراحل في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وتوجد في هذه السورة من القرآن الكريم قصص ونماذج لها، فكان موضوعها الصراع بين الإيمان والمادية، ما هو الإيمان؟ وما هي المادية؟ وجَّه القرآن الإنسان في هذه السورة إلى كيفية خروجه من أوحال المادية، وكيف يتحلى بحلي الإيمان ويعيش حياته بهدوء وطمأنينة.

ترجع قصة أصحاب الكهف إلى زمن كان فيه للمشركين جولة وصولة، وساد الشرك كل مكان، ففي هذه الأحوال قام فتية آمنوا بشريعة عيسى عليه السلام، وواجهوا الظلم والاضطهاد بسبب هذا الإيمان، وقد أووا إلى غار، وناموا فيه، فسلط الله عليهم النوم إلى ثلاث مائة سنة، ولما استيقظوا لم يقدروا مدة نومهم، بل شعروا بأنهم ناموا كثيرًا، فسأل بعضهم بعضًا: كم نمتم؟ فقال أحدهم: نمنا ساعةً، ثم قالوا: نشعر بالجوع، فماذا

نفعل؟ فأعدوا رجلاً لأخذ الطعام من السوق، وأعطوه ورقًا، وقالوا له أن يخفي أمرهم، ولا يذهب إلى مكان يعرفهم سكانه، وإلا يأخذونهم لأنهم خرجوا من مناطقهم خفيةً، ويطلعون الآن على أننا فررنا منهم، وإذا عرفوك حبسونا وعاقبونا عقابًا شديدًا، فاذهب إلى السوق سرًا، وهات بالطعام، فذهب ذلك الرجل إلى دكان، وأخذ الطعام، ثم دفع إلى البائع ورقه، وكان هذا الورق من قديم الزمان، وكانت لهجة كلام المشتري أيضًا مختلفةً، فانتشر هذا الخبر، فإن سكان هذه البلاد سُرُّوا باكتشاف هؤلاء الفتية، وقالوا: كنا نسمع من آبائنا وأجدادنا أن فتية منا قد غابوا فرارًا بدينهم، وذهبوا إلى مناطق شاسعة، لا شك أن هؤلاء هم الفتية، فثارت ضجة كبرى، وأحاطهم الناس من كل جانب، وقد تبدلت الآن الحكومة المشركة، وتاب الناس من الشرك، ودخلوا في الإسلام، وفرحوا من وجودهم فرحًا كثيرًا، وقرروا أن يبنوا مسجدًا قريبًا من كهفهم تذكارًا لهم.

أثبت الله تعالى من هذه القصة أن الدنيا وإن كانت خاضعةً للأسباب، لكن يأتي الله أحيانًا بتدبير ديني بدلاً من تدبير دنيوي، كما هو قادر على كل شيئ بدون تدبير وحكمة، سلط الله تعالى النوم على أصحاب الكهف في زمن الكفر والشرك، وأيقظهم في زمن الإسلام، وما زالوا نائمين إلى ثلاث مائة سنة، وما ماتوا، فيدل هذا على أن الله يبعث الموتى، ويحييهم مرةً ثانيةً، وكان أصحاب الكهف في زمن عيسى عليه السلام، فأشار الله بهذا إلى

أن دين عيسى كان حقًا، لكن أتباعه غيروا فيه ما غيروا، واعتبروا عيسى عليه السلام ابن الله بدلاً من أن يؤمنوا به رسولاً ونبيًا.

أصحاب الكهف:

أول ما ذكر الله تعالى في هذه السورة قصة أصحاب الكهف، الذي تفانوا بكل شيئ في سبيل الدين والعقيدة، وقاوموا كل نوع من التحديات، فكان جزاؤهم من عند الله تعالى أولاً أنه حفظهم ورعاهم من كل مكروه، وثانيًا أراد الله تعالى أن يعرف الناس هذه الحقيقة: أن كل من يستميت في سبيل الله جعل الله له قبولاً في الدنيا والآخرة، وقد جعلهم الله في نوم إلى ثلاث مائة سنة، يحسبهم الناظر يقظين، لكنهم كانوا نائمين، وعندما هبوا من نومهم فكانت هناك سلطة للمؤمنين، وتغيرت الأحوال، فأكرمهم الناس إكرامًا، وجعل الله أصحاب الكهف مثالاً، وخلد ذكرهم في القرآن الكريم، ليعلم المسلمون وغيرهم أن كل من كان لله كان الله له، وأكرمهم بالجزاء الأوفى وإن كان ذلك على سبيل المعجزة، وكان من آية الله تعالى أنهم ناموا مدة ثلاث مائة سنة، بدون غذاء وطعام، ولم تأكل الأرض أجسامهم، ولم تتأثر بها، فقدر الله لهم غذاءً روحيًا من عنده، بحيث كانت أجسامهم مصونةً، وكانوا مأمونين من كل خطر، مما يستفاد من هذه القصة أن من كان لله أيده الله بنصره.

إن الله تعالى لم يترك العالم سُدى، ولم يخلقه عبثًا، بل يدبر أمره فيه، وينفذ قانونه، وقد جعل الله تعالى نظام العالم للابتلاء

والامتحان، ذاك أن كل شيئ يكون فيه بالوسائل والذرائع، وإذا كان الأمر بالعكس لم يكن للإنسان فيه عصيان وكفران، وكان الإنسان مسيرًا لا مخيرًا، وأحيانًا يميز الله تعالى بين نظام الوسائل وبين أمره مباشرةً، ليتضح أن الوسائل ليست هي الأصل، بل المالك الحقيقي هو الله الواحد القهار.

دروس مستفادة من قصة أصحاب الكهف:

ترشدنا قصة أصحاب الكهف إلى أن الإسلام دين ناسخ للأديان، لا يبقى معه دين ولا شريعة، فإذا كان الوضع خطيرًا كان من اللازم أن يستعد الإنسان للمجازفة بحياته، ويستيقن بتغير الأحوال من الله تعالى، ويعتقد أيضًا أن كل من كان طموحًا، ذا همة عالية، ظهرت نتائج عمله حسنة، كما أشار الله إلى ذلك وهو يرفع شأن المؤمنين قال: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

أراد الملك المشرك أن يجبر أصحاب الكهف على الانصباغ بصبغته الشركية، وإلا جعل لهم نكالاً شديدًا، لكن أصحاب الكهف ثبتوا على إيمانهم كالجبال الراسيات، وقالوا: ربنا رب السماوات والأرض، لن نشرك بربنا أحدًا، وأعلنوا بكل قوة: لن نساوم الكفر والشرك، ولا نصاحب المشركين، ونحن مستعدون لذلك بكل نوع من التضحيات، فتنازلوا عن كل راحة ومتاع، وأووا إلى الغار، فأكرمهم الله تعالى بجزاء أكبر، وجعلهم من معجزاته الكبرى، وحينما استيقظوا من نومهم كانت رياح الإيمان

---

[1] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية: ١٣٩.

تهب، ورايات الإسلام ترفرف في كل مكان.

تدل قصة أصحاب الكهف على قدرة الله الكاملة، فهو قادر على كل شيئ في دقائق وثوان، وإذا قارنا بين أوضاع بلادهم حينما أووا إلى الغار، وبين الأوضاع حينما هبوا من نومهم عرفنا أن الأحوال تغيرت بمشيئة الله تعالى، وقد أثبت الله بهذه القصة أمام الناس أن الله هو المؤثر الحقيقي في قلب الأوضاع، وقد أحيا الله أصحاب الكهف إلى مدة طويلة لينكشف هذا الواقع أمامهم وأمام عامة الناس، وإلا يمكن أن يقبض الله أرواحهم حال نومهم، وكان سبب نجاتهم في الآخرة أنهم آمنوا بالله عز وجل.

صاحب الجنتين:

ذكر الله تعالى في سورة الكهف قصة رجلين: كان أحدهما يؤمن بالله تعالى، ويشكره على نعمائه، وثانيهما كان يعيش في مجتمع مسلم، ولّما يدخل الإيمان في قلبه، ولم يظهر أثره عليه، فحينما غرس جنته وآتت أكلها، فظن أنه كان نتيجةً لجهوده ومساعيه وتدابيره التي بذلها، وقد قال له صاحبه: إن فكرته هذه تخالف الإيمان بالله، لكنه لم يعترف به، فأراه الله تعالى نتيجةً لذلك وقال: إنك إذا ظننت أن ما أوتيت من المال إنما أنتجه جهدك، وأنت تدعي أنك تفعل ما تشاء من سعيك، فاعلم أن ما تملك من الجنات والزرع ليس بخارج من قدرة الله تعالى، فإن الله هو الفاعل الحقيقي في الأمور كلها، فإذا أراد أن يحوّل جنات خضراء إلى ذرات يابسة فعلها حتى تذروها الرياح.

ما شاء الله:

أمر الله تعالى في القرآن الكريم في ضوء هذه القصة المؤمنين بأن يقولوا: ما شاء الله، وهي دليل على أن الله الولي الحقيقي، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا نعلم عن المستقبل شيئًا، وكل ما يكون في المستقبل قد قرره الله تعالى من قبل، فلا بد أن ننسب كل شيئ إلى الله، ونبدي هذه الحقيقة أن الله تعالى إذا شاء وقع ذلك الأمر، وإذا شاء حصل لنا نجاح، ونحن بجهودنا ومساعينا لسنا بشيئ، وهذا هو شأن المؤمن أن تكون هواه تبعًا لما أمر الله به، وليعتقد في كل شيئ أن الله إذا رضي بشيئ تحقق ذلك، ونحن عباده مكلفون لكل ما أمرنا الله به، هذه هي خلاصة الحياة الإيمانية أيضًا، وهي أن لا يعتقد الإنسان سعيه أساسًا لنجاحه، بل يربطه بمشيئة الله، وبما أن أمر الله ليس واضحًا أمامنا، وهو بالغيب، الذي يقع في المستقبل، ولا يعلمه إلا الله، فلا بد أن نقول عن كل شيئ في المستقبل: إذا شاء الله كان، أو إذا قضى الله كان، وجميع أمورنا تابعة لقضائه.

قصة موسى والخضر عليهما السلام:

مرةً سأل بنو إسرائيل موسى عليه السلام: من أعلم الناس؟ فظن موسى عليه السلام أن الله تعالى بعثه نبيًا، وأنزل عليه الوحي، فمن يكون أعلم منه للشريعة الإلهية، ومن يكون أكثر اطلاعًا عليها منه؟ فأجاب موسى عليه السلام: أنا، لم يرض الله تعالى بجواب موسى هذا، وقال له: هناك أعلم الناس منك يا

موسى؟، فاذهب إلى مجمع البحرين، تجد رجلاً أعلم منك، فأخبره الله بعلامات لازمة للخضر عليه السلام، وقال له: ضع في مزودك حوتًا، فإذا غاب هذا الحوت في موضع، وجدت هناك الخضر، خرج موسى عليه السلام مع فتاه يوشع بن النون لزيارة الخضر، فإن الموضع الذي يُرجى فيه لقاء الخضر عليه السلام كان صخرةً، لكن موسى عليه السلام جاوز هذه الصخرة ماشيًا، ولم يخطر بباله، وقد وثب الحوت عند الصخرة في الماء، ورأى ذلك فتاه، لكنه نسي، فلما وجدا في سفرهما نصبًا ورهقًا، شعر موسى عليه السلام بالجوع، وطلب من فتاه الطعام، ولم يكن موجودًا معه، فقال له فتاه: قد وثب الحوت عند الصخرة، وقد أنسانيه الشيطان، فقال موسى عليه السلام: ذلك ما كنا نبغ، وقد جاوزنا غايتنا التي سافرنا لأجلها، فرجعا على آثارهما قصصًا.

يتجلى من ظاهر القصة أن الحوت الذي حمله موسى عليه السلام لم يكن حيًا، بل كان مشويًا، أو أن هناك عدة حيتان، بعضها للأكل، وبعضها للعلامة، رجع موسى عليه السلام إلى الصخرة، فزار الخضر عليه السلام، فتعارف كل واحد منهما، وقال موسى عليه السلام: جئنا إليك لنعرف العلم الذي أكرمك الله تعالى به، ونستفيد منه، فقال الخضر عليه السلام: امش معي، ولا تسأل عن شيئ أقوم به خلال السفر، بل كن صابرًا وهادئًا.

سفينة الملاح:

فانطلقا إلى جهة كان في طريقها بحر، فركبا سفينةً، كانت

لبعض الفقراء والمساكين، وكانت هذه السفينة بُلغة عيشهم، وكانت جديدةً، لكن الملاح أركبهما بدون أجرة، ظنا منهما رجلين كريمين، فلما جلسا على السفينة خرق الخضر عليه السلام بعض ألواح السفينة، وأصبحت السفينة ذات عيب، فقال موسى عليه السلام للخضر: لقد أتيت بعجب عجاب، إن صاحب السفينة قد عامل معنا معاملةً حسنةً، لكنك خرقت سفينته؟ فقال الخضر عليه السلام: إنك لا تستطيع معي صبرًا، لا تسألني عن شيئ، بل انظر إلى كل ما أفعل.

قتل الغلام الصغير:

فانطلقا، فمرا بصبيان كانوا يلعبون، دعا الخضر عليه السلام واحدًا منهم، وقتله، فمات، وكان موسى عليه السلام رجلاً ذا هيبة، فلم يصبر على ذلك، وقال للخضر: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفس، لقد جئت شيئًا إمرًا، فرد عليه الخضر: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال موسى عليه السلام: أجل، إن سألتك عن شيئ فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذرًا.

إقامة الجدار:

فانطلقا، حتى أتيا قريةً، وشعرا بالجوع، ولم يكن هناك مطعم يأكلان منه، وكان من عادة ذلك الزمان أن الضيوف إذا وصلوا إلى قرية، كان من واجب أهالي القرية استضافتهم، وتعتبر الاستضافة والقرى واجبًا إنسانيًا، لكن لم يسألهما واحد من أهالي القرية، فجلسا في موضع، وأثناء ذلك رأى الخضر عليه

السلام جدارًا يريد أن ينقض، فأقامه، وصانه من الضياع والانهيار، فقال موسى عليه السلام: هذا أمر عجيب، لم يسأل سكان هذه القرية عن ضيافتنا، لكنك أحسنت إليهم بإقامة جدارهم، لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، فأجاب الخضر عليه السلام لموسى: لا يمكن أن تُدرك هذا الواقع، ولن تستطيع معي صبرًا، وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا.

حكمة هذه القصص الثلاث:

قال الخضر عليه السلام: أما السفينة التي خرقنا أحد ألواحها، فكان هناك ملك يأخذ كل سفينة جديدة غصبًا، وبما أن هذه السفينة كانت لهؤلاء الفقراء والمساكين، فكان يخشى أن يأخذها الملك، فخرقنا فيها لئلا يأخذها عُمال الملك، وقد ألهم الله تعالى في قلبي لتفادي هذه السفينة من الأيدي الآثمة.

ثم قال: أما الغلام فكان في قضاء الله تعالى وقدره سيئًا، وإذا كان شابًا شكل خطرًا على أبويه، فأماته الله بيدي، قبل أن يكون خطرًا على والديه، وكان والداه صالحين، فكان صلاحهما سببًا لصيانتهما من هذه المصيبة، ولعل الله يبدلهما خيرًا منه زكاةً وأقرب رحمًا.

هذه القصة تدل على أن الإنسان إذا كان صالحًا في نفسه، ويعتبر عند الله صالحًا، صانه الله تعالى من مصايبه، ووقاه من الآفات ما لم يكن في الحسبان، فلا بد من أن ينسب الإنسان كل شيئ إلى الله تعالى، والخطأ كل الخطأ أن ينسب الإنسان النجاح إلى

نفسه، ويربطه بعلمه وتجربته، ويقول: هذا مما أوتيته على علم عندي، أو حصل لي ذلك صدفة، الواقع أن كل شيئ يرتبط بالله تعالى، فهو يراه ويراقبه، ولا يقع إلا بإذنه، فيتعجب الإنسان في كثير من المناسبات: كيف وقع ذلك، ولا يكون ذلك في عامة الأحوال، بل في مناسبات خاصة، لكنه رغم ذلك كله يعتبره صدفة، وقد تكون عناية الله بتبديل نظام الكون، مثلاً يسيل الماء من الأعلى إلى الأسفل، وهذا هو المعتاد، لكن يمكن أيضًا أن الماء إذا سال من الأعلى صُرفت جهته إلى جهة أخرى، فسال إلى تلك الجهة.

وذكر الخضر عليه السلام تأويل القصة الثالثة أن الجدار الذي أقمناه كان لرجال صالحين، وقد انتقلوا إلى رحمة الله تعالى، وكان لهم غلامان يتيمان، وكان تحت الجدار كنز دفين، وضعه أبواه لينتفع به أولادهما في حياتهما، فإذا سقط الجدار انكشف الكنز، وغصبه الناس، فلا بد من إقامة جدار عليه، فأراد الله أن يبلغ هذا الغلامان أشدهما، ويستخرجا كنزهما رحمةً من الله تعالى.

لم يكن في قديم الزمان نظام البنوك، فكان الناس يكنزون كنوزهم في الأرض، ويجعلون لها علامةً، يكتشفون بها وقت الحاجة، فيمكن أن الموضع الذي دفن فيه الكنز كان يعرف الغلامان علامته.

غاية القصص الثلاث:

ذكر الله تعالى هذه القصص الثلاث في القرآن الكريم للناس كنماذج حية، ليعرفوا أن الله لم يترك هذا الكون بعد ما خلقه، بل

يأتي فيه بأحوال وأمور حسب سلوكيات الناس، ويأتي فيها العذاب من الله، لكن من الأسف أن العذاب إذا نزل جعل الإنسان يؤول تأويلات، ويعتقد أنه نزل فجاءةً لسبب مادي، ورغم أنه يكون عذابًا، وعقابًا من الله تعالى، أو يكون صورةً من الله تثبت للإنسان أنه يقوم بتأويل مادي، ويرجعه إلى ظاهرة كونية، وهو غلط فاحش، الواقع أن الكون كله بيد الله، ألا له الخلق والأمر، إذا شاء أطلق هذا النظام، وإذا شاء أمسكه، وقرر هذا النظام من قبل، وأخبر بأن كل شيئ عنده بمقدار، ولا بد من الاعتناء بهذا الجانب لأن الله لم يترك هذا النظام مستندًا إلى الوسائل، بل أمسكه بيده، وهو يراقب كل شيئ، ويبدل في النظام كيفما شاء، هذا هو السبب فيما إذا وضع الله تغيرًا في نظامه.

عبرة لمن اعتبر:

يجري هذا النظام الإلهي تكوينيًا، لكن يغير الله تعالى فيه أحيانًا كما ثبت من قصة موسى والخضر عليهما السلام، تثبت هذه القصة أن كل ما يكون في هذا الكون يكون بأمر الله تعالى، وأحيانًا يقع فيه تغير بإذن منه، وهذا التغير إما يكون عقابًا كما كان قتل الغلام بيد الخضر عليه السلام، وإما يكون إنعامًا على الإنسان كما كانت إقامة جدار اليتيمين.

هذه القصص الثلاث ذات عبر وبصاير، يتجلى من القصتين الأوليين عقاب من الله، لكنه في الواقع فضل الله تعالى، يبين أن الإنسان يكون دائمًا في مراقبة الله تعالى، إذا صدر منه أدنى خيانة

أثر ذلك أيما تأثير، وإذا أثار عمله غضب الله أنزل عليه عقابًا من عنده، أو إذا رضي بعمل منه أكرمه برحمة منه وفضل، فأولياء الله المخلصون إذا أصابهم هم أو حزن لا يشكون، بل يقولون: زادنا الله مكانةً وأجرًا بهذه المصيبة.

حكومة ذي القرنين:

ذكر الله في نهاية سورة الكهف قصة ذي القرنين، من كان ذا القرنين؟ وفي أي زمن كان، اختلفت فيه آراء المفسرين، وليس أسلوب القرآن أن يتعرض لبيانها، إنه يتناول فيه ما يكون عبرةً ونصيحةً للإنسان، ذكر القرآن الكريم أن ذا القرنين طاف العالم كله، من الشرق إلى الغرب، وقد وجد خلال سفره قومًا فقال الله لذي القرنين: إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا، فقال: أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا، وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرًا.

عرض الله تعالى في قصة ذي القرنين مثالاً للحكومة الإسلامية، إذا حصلت لإنسان حكومة، فكيف يعامل الناس، وما هي مسئولياته التي تعود عليه نحو رعيته، وما هي أساليب حكومته، فلا بد له أن يراعي حقوق جميع رعاياه، ويزيل عنهم العقبات والعوائق، ويرفع منهم مشكلاتهم.

سنة الله في الكون

الإسلام دين غيرة وحمية، إنه جاء بشريعة نسخت جميع الشرائع السابقة وأبطلت قوانينها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1]، أكدت الآية على رفض الطاغوت، قبل الإيمان بالله تعالى، واعتبرت الإيمان بالله بدونه عملاً لا يعبأ به، فعُلم أن الإيمان بالله لا يكون كاملاً، إلا إذا كان هناك نفي ما دون الله، فقُدم النفي في كلمة التوحيد، ثم ورد الإثبات، وإذا كان الإثبات غايةً، ولم تكن الحاجة إلى النفي كانت الكلمة على هذا: الله هو الإله الواحد، فالنفي لازم، لأن الكلام لا يكون بدونه واضحًا، فكانت الكلمة الطيبة كاملةً: لا إله إلا الله.

فكما كان النفي القولي لازمًا للدخول في الإسلام، كذلك يلزم النفي العملي، معناه إذا كانت البيئة شركيةً، وهي تضر بالعقائد كان المطلوب من صاحب الإيمان أن يكون راسخًا في إيمانه، وإن تأزمت الأحوال والظروف، وبالعكس من ذلك إذا لم يكن إيمان المرء راسخًا، وهو ينصبغ في كل مجتمع يعيش فيه، ولا يواجه

---

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

الأوضاع الصعبة، لم تكن حياته حافلةً بالمشكلات، بل تنسجم مع حياة عامة الناس، على كل، فإن الإسلام يطالب من كل مسلم يعتنق بدين الإسلام أن يكون صلبًا في العقائد مثل الحديد، ولا يبالي بالظروف المضادة التي تعانيه في هذا السبيل، لأن الله تعالى قد صرّح بذلك في سورة الكافرون: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ. لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ. وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مّا عَبَدتُّمْ. وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

الإنسان مخيّر لا مسيّر:

خلق الله الإنسان في هذه الدنيا للعمل، فإذا عمل في هذه الدنيا عملاً حسنًا جزاه الله تعالى في الآخرة جزاءً حسنًا، يمتحن الله في الدنيا الإنسان وقوة عمله، بحيث جعل الدنيا زينةً له، ومعنى الزينة أن يتمتع الإنسان بشيئ، ويعجب به، ولم تكن هذه الزينة إلا لتوفير التسهيلات للإنسان، ثم أمره الله تعالى أن يلاحظ رضا الله تعالى في استعمال هذه الأشياء، ولا ينظر إلى هواه، وجعله الله مخيّرًا في هذا الكون، سواء مال إلى الخير أو مال إلى الشر، ولم يضع في هذا السبيل حاجزًا، وقال القرآن الكريم في موضع: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[2]، لكنه خيّر الإنسان ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقّ الْقَوْلُ مِنّي لَأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكافرون، الآيات: ١–٦.

[2] القرآن الكريم، سورة يونس، الآية: ٩٩.

أَجْمَعِينَ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٢].

صرّح الله تعالى في القرآن الكريم بكل وضوح أمام الناس: إذا اخترتم الخير كانت النتيجة حسنةً، وإذا أغواكم الشيطان، بحيث تغافلتم عن رضا الله تعالى، وآثرتم راحة جسدكم، فتمتعوا في الدنيا فقط، لأن الله خيّركم في هذه الدنيا، وإذا لم يكن لكم خيار، لا يكون امتحانكم، فاستمتعوا بهذا الخيار، فسوف تنالون جزاء أعمالكم في الآخرة، وتخسرون فيها، وذلك هو الخسران المبين.

نية الإنسان وعاطفته:

ينظر الله تعالى إلى نيات العباد وقلوبهم، فإنهم يقومون تارةً بأعمال دينية يرضاها الله تعالى، كما ورد في الحديث أن رجلاً سقى كلبًا فغفر الله له، رغم أن سقي الماء للكلب شيئ هيّن، لكن العاطفة التي تكمن وراء هذا العمل أحبها الله تعالى، والله سبحانه إذا رضي شيئًا أحبه وأعطى جزاءه، كما أدخل الله الجنة رجلاً على مجرد سقي الكلب الماء، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً رأى كلبًا يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفه، فجعل يغرف له به، حتى أرواه، فشكر الله له فأدخله الجنة [١]، فاتضح منه أن عمل الإنسان أحيانًا يبلغ درجةً، يغفر الله فيها خطاياه، ويكرمه بفضله وكرمه، ويستمر ذلك، ولا يشعر الإنسان بأن أي عمل من أعماله كان محبوبًا عند الله، فهذه الدنيا دار الامتحان، فلا

---

[١] القرآن الكريم، سورة السجدة، الآية: ١٣.

[٢] القرآن الكريم، سورة الإنسان، الآية: ٣.

يظهر الله هذه الأمور فيها واضحةً، بل يخفيها عن أعين الناس.

المخلوقات الهادفة:

لم يخلق الله تعالى أي شيئ في الدنيا عبثًا، بل جعل له غايةً، فيبقى ذلك الشيئ وفق نظام الله تعالى، كذلك لم يُخلق الإنسان سُدىً، بل كان لخلقه غايةً، وبما أن الإنس والجن يبتليهما الله تعالى، فجعل الجنة أو النار نهايةً لهما، أما المخلوقات الأخرى فلها غايات خلقها، فهي تبقى إلى ما شاء الله أن تبقى، ثم تموت أو تنتهي، وقد خلق الله الحيوانات لصالح الإنسان، فإذا انتهت حاجة الإنسان إليها ماتت الحيوانات، لكن الإنس والجن هما خلقان مخيّران، إما يدخلهما الله تعالى الجنة أم يدخلهما النار، وجعل لهما دار الآخرة، كما جعل الحياة الدنيا مزرعة الآخرة، حيث يصل إليها الإنسان بأعماله، فيعامل الله فيها وفق أعماله، فيخلد فيها، إما في النار أو في الجنة، فليس هناك للإقامة والمكوث سوى هذين الموضعين.

غاية بعثة الأنبياء:

نبّه الله تعالى الإنسان على إصلاح الحياة الأخروية مرارًا وتكرارًا، وكلما ضلّ الإنسان الصراط المستقيم أو نسي غايته وتغافل عن سبب وجوده في هذه الدنيا، بعث الله الأنبياء والرسل، وإذا فشت المعاصي والمنكرات في المجتمع، وتجاوز الناس الحدود التي رسمها الله تعالى لهم، واشتغلوا بأعمال تثير غضب الله تعالى، ونظرًا إلى إهاناتهم يعتقد كل من رآهم أنهم يستحقون العذاب الإلهي، وهم في حاجة إلى زجر وتنبيه من الله تعالى بعث

الله تعالى في هذه الأحوال الحرجة نبيًا أو رسولاً، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، أنه ما جاءنا من بشير ولا نذير.

وكان في علم الله تعالى من قبل أن من لم يكتب له الإيمان لا يؤمن بعد إتمام الحجة من الله تعالى، لكن الله يرتب نظامه وفقًا للظاهر، فأرسل الرسل، وقد أفنوا أعمارهم في هداية قومهم، فلما تحقق أنهم لا يؤمنون نزل عليهم عذاب الله تعالى.

خصائص البعثة المحمدية:

تمتاز هذه الأمة من بين سائر الأمم بأن عذاب الله لا يأتي عليها جماعيًا، لكن الله نبّه الأمة في مواضع كثيرة من القرآن أن عذاب الله نزل على الأمم السابقة، وكلما فسدت أحوال الأمة نزل عليهم العذاب، فإذا لم تؤمن الأمة بنبيها، ولم تعمل بشريعتها، نزل عليهم العذاب، وقد عرف الله طبايع هذه الأمة أن هؤلاء يؤمنون، ولا يبلغون في العصيان إلى حد، بلغ إليه قوم ثمود الذين سخروا من ناقة الله تعالى، ولا يسلكون مسلك الأمم والشعوب التي رفضت كل معجزة من معجزات الله، وتغلغل فيها العناد والكفر، حتى قتلت أنبياء الله، فأنزل الله عليهم العذاب.

سنة الله تعالى:

هذه سنة الله في الأرض أنه لا يرسل العذاب دفعةً واحدةً، بل يُرسل إنذارات وتنبيهات، ليتنبه الناس، ويرجعوا من غفلتهم، وغاية العذاب الأدنى أن الناس إذا لم ينتهوا عن غيهم يبتلون بالعذاب الأكبر، وهذه رحمة الله وفضله أنه ينبه الناس، كما أن

ولي الطفل يضربه ضربًا خفيفًا إذا رأى منه شيئًا، لئلا يعود إلى الخطأ، ولا يتأثر بأي عادة قبيحة، كذلك ينزل الله على عباده المصايب ليتيقظوا من غفلتهم، ويسددوا خطاهم، وتحسن عاقبتهم.

وأحيانًا تأتي المصايب على الإنسان لرفع درجاته في الآخرة، ويكرم الإنسان فيها بجزاء أعماله، فيتمنى أنه لو كانت له في الدنيا مصايب كثيرة، لوجد جزاءها هنا، وكلما ابتُلي المشايخ والربانيون بالمصايب شكروا الله عز وجل، ولا يعتبرونه عقابًا، بل يتصورون أن الله أحبهم، فأنزل عليهم هذه المصيبة لترتفع درجاتهم في الآخرة، لكن لا مجال للإنكار في أن بعض المصايب تكون عقابًا، وتنبيهًا من الله، فليفكر الإنسان في أعماله، ويحاسبها، وقد رأينا بعض الناس ذوي حساسية بالغة، بحيث ينسبون كل مصيبة إلى ذنوبهم، فيندمون، ويتوبون إلى الله، فلا بد للإنسان من أن يحذر من الذنوب، لأنه لا يعلم أن أي ذنب يكون مبعث غضب الله تعالى.

وتارةً يكون عذاب الله على أمر يكون تافهًا وهيّنًا، لكن يثير سخط الله تعالى، فينزل العذاب عاجلاً، ويعاقَب الإنسان، كما يتضح من قصة صاحب الجنتين، أنه تكلم بجملة غير مناسبة، فابتلي بعقاب عظيم، بحيث أحيط بثمره، وتحولت جنته المتدلية بالثمار إلى رماد في دقائق وثوان، فثبت منه أن الإنسان إذا لم يكن حذرًا في شأن الله، أو علّق تعليقًا يثير غضب الله، أخذه الله أخذ عزيز مقتدر، لكن لا يكون هذا العقاب على الذنوب العامة، فإن مؤاخذتها تكون في الآخرة، وينال الإنسان عقوباتها فيها، فالعقاب السريع لا يترتب إلا

على الذنوب التي تكون إساءةً في شأن الله تعالى أو كبرًا وإهانةً له.

أنواع المصايب:

المصايب التي يُبتلى بها الإنسان في هذه الدنيا هي تنبيهات وإنذارات من الله تعالى، وقال العلماء: إن للمصايب ثلاثة أنواع: إما تكون تنبيهًا، أو تكون عذابًا، أو تكون رفعًا لدرجة الإنسان، ويمرض الإنسان مرضًا، فيزداد أجره، وقد جاء في الحديث: عن جابر رضي الله عنه، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطي أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت لو قُطعت في الدنيا بالمقاريض[1]، وتارةً تنزل العقوبات على الإنسان تنبيهًا له، ويذكره الله تعالى بأن ما يعمل لا يوافق مرضاته، ويمكن أن تنزل عليه مصايب أخرى.

أما ما نزل على فرعون من عقوبات فإنها كانت من باب التنبيه والإنذار، وقد أرسل الله عليه أنواعًا من المصايب: الضفدع الذي يثب في كل مكان، ويدخل في الطعام، وكأس الماء كذلك، حتى عجز آل فرعون منه، كذلك الدم سال في كل مكان، والقمل، أخبر الله آل فرعون بأن هذا من أنواع العذاب، وهي مصايب صغيرة نزلت ليتنبه الإنسان من غفلته، ويؤمن بالله إيمانًا كاملاً، لكن فرعون كلما عجز وانزعج من هذه المصيبة طلب من موسى عليه السلام أن يدعو له، فيؤمن بالله، لكن إذا انكشفت المصيبة رجع إلى كبره وخيلائه، فنزلت عليه سبعة أنواع من المصايب.

---

[1] سنن الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٢٤٠٢).

قدرة الله وقوته في الكون

العلم علمان:

العلم علمان: علم تشريعي وعلم تكويني، فالعلم التشريعي هو العلم الذي يكون للأحكام التي فرضها الله على عباده مثل الصلاة والصيام والحج وحقوق العباد، والعلم التكويني هو العلم الذي يُعرف به أسرار الكون وحقيقة نظامه الذي يجري فيه، فالأنبياء لا يُكرمون بهذا العلم، بل يُكرمون بالعلم التشريعي، فيكونون في العلم التكويني أمثال الآخرين، فإذا كانت هناك حرب شاركوا فيها، وطرأت أحوال كما تطرأ للآخرين، وقد كان موسى عليه السلام يعرف كل شيئ في العلم التشريعي، لكنه لا يعرف من العلم التكويني شيئًا.

النظام التكويني:

لقد تحقق من قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام أن الله وضع في الكون من يحمل العلم التكويني، كما يحمل الأنبياء العلم التشريعي، وكان الخضر عليه السلام خير مثال له، غير أن العلماء اختلفوا في كونه نبيًا أو وليًا، يقول بعضهم: إنه نبي، ويقول آخرون: إنه ولي، لكن الله تعالى أكرمه بصفات الأنبياء، لأن النبي

هو من يأتي بالغيب أو يخبر عن المستقبل بأمر من الله تعالى.

تغير النظام التكويني:

يتجلى من دراسة القصص المذكورة في سورة الكهف أن الله تعالى يغير في نظامه التكويني كثيرًا على أساس حسنات الناس وسيئاتهم، كما كان نظامه مع أصحاب الكهف، إن الله صانهم في مكان مصون، لم يصل إليه أحد، وأنامهم أكثر من مدة ثلاث مائة سنة، ثم أيقظهم حينما تغيرت أحوال البلاد، وأخبر عنهم أنهم كانوا ينامون، وكانت عيونهم تسهر، فكانت لهم صورة استثنائية، بحيث كانت أجسامهم سالمةً رغم نومهم إلى أمد بعيد، وعدم طعامهم وشرابهم، ووضع الله فيهم قوةً كانت تعمل عمل الغذاء.

النظام التشريعي:

النظام التكويني بيد الله تعالى، أما النظام التشريعي الذي يتعلق بالتدابير أمر الله الإنسان باختيارها وقت الحاجة، فإذا قصرنا في اختيار التدابير كنا خاسرين، ولم يفرق الله فيه بين المؤمن والكافر، فكان فيه امتحان المؤمن والكافر، فالمؤمن يتغلب على هواه بإيمانه، وينفذ قوانين الله تعالى، وإن تجشم في ذلك مشاق، لكن الكافر يكون تابعًا لهواه، ويستغل منافعه بتدابيره، هكذا يبين الله تعالى الفرق بين المؤمن والكافر بالنسبة إلى الوسائل، فيتعين أمامه: من هو المطيع، ومن هو العاصي، ويتضح هذا الفرق في الآخرة، أما الدنيا فإنها دار العمل، وقد أعطى الله الإنسان عمرًا طويلاً، وجعل له من أسباب المعيشة، فالإنسان مسئول عما يمتثل

فيه لأوامر الله أم يخالفها، فإذا علم رضا الله تعالى، فلا بد له أن ينفذه في حياته، وإن اقتضى ذلك صعوبات أو تطلب ذلك تضحيات، فالإنسان مكلف من الله لهذا العمل.

الوسائل تابعة لمشيئة الله تعالى:

ويتبين من قصص سورة الكهف أيضًا أن الوسائل التي نختارها هي تابعة لمشيئة الله، وليست الوسائل حرةً وطليقةً، وهي ليست كما نأخذ خشبًا أو نستعمل ملعقًا، بل الوسائل خاضعة لمشيئة الله تعالى، وهي تعمل كما كانت مكلفةً من الله تعالى، فالإنسان وإن كان يختارها بعقله وتجربته، لكن خلقها الله تعالى، والظاهر أن الله تعالى إذا خلق شيئًا أودع فيه تأثيرًا، ويكون هذا التأثير لمصالح كونية.

إن نظام الدنيا كله، وكل ما يوجد في هذا الكون إنما هو في علم الله وقدرته، فالماضي والحال والمستقبل من صنع الله تعالى، وقدّر الله نظام الكون قبل خلقه، وجعل له وسائل وتدابير وفقًا لهذا النظام، ولا شك أن تقدير الله عز وجل عبارة عن خلقه، فالساعات التي قررها الله تعالى تظهر فيها هذه الأشياء، وليعلم الإنسان أنها ساعات معينة من الله تعالى، وإن الزمن الذي خلقنا الله فيه ليس صُدفة، بل قدر الله قبل خلق الكون أو الإنسان أن يكون في الوقت الخاص والساعة الخاصة، ويكون عمره كذا، ويمر في حياته بمراحل، إن هذا النظام خلقه الله من قبل، ولم يكن ذلك فجاءةً، فهذا العمر الذي أكرمنا الله وإياكم به كان مقررًا عند الله، وقد وضع الله تعالى في كل شيئ حكمةً، فكم من عمر يحتاج إليه

الإنسان لإنجاز أعماله في أحوال خاصة، فنظرًا إلى هذا خلقه الله تعالى في زمن مناسب له.

ضآلة الوسائل:

أخبر الله تعالى في القرآن الكريم بأمثلة متعددة بأن نظام الخير والشر كله بيد الله تعالى، فكما أعطى الله الإنسان الوسائل، كذلك هو قادر على سلبها، فليستيقن الإنسان بأن زمام النظام بيد الله، ليس في يد الإنسان، فإنه يأخذ بطرف منه، لكن أصله في يد الله تعالى، فإن الطرف الذي يملك الإنسان لا يتحرك إلا مثلما يحرِّكه الله تعالى، لكن من الأسف أن الإنسان لا يفهم هذا القدر من الكلام، ويتعرض للغرور والخدعة.

ضرب الله في التاريخ الإنساني أمثلةً تاريخيةً، وهي تدل على أن الله تعالى يفعل ما لا يتصوره الإنسان، وخير مثال له قصة أصحاب الكهف، فإنهم ضحوا بحياتهم في سبيل الله، وثبتوا على إيمانهم، فنصرهم الله نصرًا غيبيًا، وأثبت للناس أن الله قادر على أن ينصر عباده خارقًا للعادة، فظلوا ينامون ثلاث مائة سنة، ولم يموتوا خلال هذه المدة، ولم تفسد أبدانهم، ثم أيقظهم الله تعالى في زمن قد انتشر فيه دين التوحيد، وتبدلت البلاد من ذي قبل، فرأوا بأم أعينهم هذه المعجزة الإلهية، ثم ماتوا، إنهم لم يروا بيئة ذلك العصر فقط، بل ذهبوا بورقهم إلى البلد لاشتراء الطعام، وانكشف أمرهم، فرأى أهل البلد، وكل ذلك بتدبير الله تعالى، ليعلم الناس أن الله على كل شيئ قدير، وإذا كانت هناك صورة أخرى بحيث قد

رآهم واحد، أو أخبره أصحاب الكهف بأننا من سكان هذا البلد قبل ثلاثة قرون، لا يعترف الناس بهم، ولا يسلمونهم، لكن الله قدَّر تقديرًا بحيث إن الناس حينما رأوا ورقهم وملابسهم، وعرفوا لغتهم القديمة ظنوا أنهم أصحاب الكهف، ومعلوم أن لغتهم قد تغيرت كثيرًا في ظرف ثلاث مائة سنة، كما تغيرت ثقافتهم، فكان ورقهم المالي يختلف من الورق الشائع في ذلك العصر، هذه كلها شواهد على أنهم من الزمن القديم، وقد أراد الله أن يكشف أمام الناس هذا الواقع أنه كيف أكرم عباده المؤمنين بفضله وكرمه، فإنه صانهم إلى مدة، وجعلهم آيةً للآخرين.

لا قيمة للجهود المادية تجاه النظام التكويني:

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم قصة موسى والخضر عليهما السلام ليعرف الإنسان أن الجهود المادية لا قيمة لها ما لم يأذن الله بها ويؤيدها، وإلا كان النظام الظاهر عبثًا، ولابد لكل مؤمن أن يدرك هذه الحقيقة ويعرف أن في وسعنا سعيًا دؤوبًا، لكن الله هو الفاعل الحقيقي، وكل ما يجري في هذا العالم يجري بمشيئة الله تعالى، هو يحكم ما يريد، ويراقب كل ظاهر وخفي، إذا أراد أن يغير شيئًا فعل، وجعل سعينا هباءً منثورًا، فإن نجاح جهود الإنسان وظهورها على أرض الواقع بيد الله تعالى، لا ينبغي للإنسان أن يظن أن سعيه سعي نهائي، بل الأمر النهائي لله تعالى، ربما نرى أن هناك رجالاً ذوي صلاحيات ومواهب جيدة يخططون نظامًا بحكمة ودراية ويبرمجون، ثم يطبقونه، لكنهم يفشلون في هذا

النظام، وبالعكس من ذلك هناك رجل متواضع يخطط حسب مستواه، ويتطور ويتقدم ويبلغ درجة النجاح، وكلما أخذ شيئًا أو تناول حالفه النجاح، فعلم منه أن الأمر النهائي ليس للإنسان، إنما شأنه التخطيط، ولكن تحقيق هذا العمل أو فشله بيد الله تعالى، وخارج من نطاق الإنسان.

نظام الله تعالى:

قرر الله تعالى نظام الكون، قبل خلق السماوات والأرض والمخلوقات الأخرى، وما هي المخلوقات التي تخلق، وما هي كيفية خلقها؟ وما هي خصائصها؟ وكيف تكون الأرض، وكيف تكون السماء، وما هي فوارقها؟ قدرها الله تعالى كل ذلك قبل أن يخلقه، فهو القادر المطلق، وتكفي مشيئته وإرادته وجود أي شيئ في أي زمان ومكان، وإذا أراد شيئًا قال: كن فيكون؟ فكأن وجود شيئ يتوقف على إرادته، فلما أراد الله تعالى خلق الدنيا بحيث تكون فيها المخلوقات الأخرى ويجري نظامها، فلا يكون كل صغير وكبير خارجًا عن علم الله تعالى، بل كل شيئ يكون تابعًا للقواعد والأصول التي قررها الله تعالى.

نظام الخير والشر:

جعل الله تعالى في هذا الكون نظام الخير والشر، لكنه أخفاه، وبما أن الإنسان يحمل عقلاً وفهمًا، وتجارب ظاهرةً، ويمتلك الوسائل، فيظن أحيانًا أنه يستطيع أن يعمل كل شيئ، الواقع أن هذا الأمر صحيح إلى حد، بحيث إذا توافرت للإنسان

الوسائل يمكن أن يفعل ما شاء، لأن الله قد خلق وسائل يستطيع الإنسان أن ينال بها النجاح، لكن هذه الثقة قد تبلغ به إلى حد أنه يكون مغرورًا بنفسه.

الكبر والغرور:

قد حدث في التاريخ الإنساني مرارًا أن الإنسان إذا توافرت له وسائل القوة والتصرف والانطلاق اعتقد أنه إله، ذكر القرآن الكريم في هذا الأمر مثال فرعون، الذي كان يقول: وقال فرعون: ﴿يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِى﴾[1]، وحينما تجمعت لفرعون قوى مادية كثيرة ظن نفسه إلهًا، رغم أنه كان يعلم مدى قوته وتصرفه، وكم كان عاجزًا في وسائله وأسبابه.

ذكر القرآن الكريم قصة إبراهيم عليه السلام أيضًا، كان في زمنه ملك، قد اغتر بقوته وسلطته، وانخدع بكثرة وسائله وظن أنه إله، وهو يملك خيارًا كليًا، فحاج إبراهيم عليه السلام، يتحدث القرآن الكريم عن هذه المحاجة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

كان الملك يعتقد أنه يملك الموت والحياة، يميت من يشاء،

---

[1] القرآن الكريم، سورة القصص، الآية: ٣٨.

[2] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.

ويحيي من يشاء، فأخبره إبراهيم عليه السلام: الله هو يحيي ويميت، فقال الملك: أنا أيضًا أحيي وأميت، فدعا رجلاً قد صدر له حكم الإعدام، أطلق سراحه، ودعا رجلاً آخر، كان بريئًا، قتله، ففهم إبراهيم عليه السلام بحمق الملك أنه لا يملك ذرةً من العقل، فيتظاهر بمثل هذا الحمق والسفاهة، فقال له إبراهيم عليه السلام: قدِّم لإثبات ألوهيتك وربوبيتك مثالاً آخر، وهو إخراج الشمس من المغرب، فتحير الملك وبُهت، وكان عاجزًا عن إخراج الشمس من المغرب.

الواقع أن الإنسان إذا حصلت له وسائل ونال قوةً ماديةً، كان مغرورًا بنفسه، وأحيانًا يقع المتدينون فريسةً لهذا الغرور إذا نالوا تسهيلات ووسائل، ونجحوا في جهودهم، فينخدعون بأنهم يستطيعون أن ينجزوا كل شيئ. (والله على كل شيئ قدير).

الظاهر والباطن في الكون

منهجان لمشيئة الله تعالى:

هناك منهجان لتطبيق مشيئة الله تعالى وإرادته: الأمر، والخلق، فالمنهج الأول يسير تحت نظام "كن فيكون"، يقول الله تعالى كلمة "كن" إذا أراد أن يخلق شيئًا فيكون ذلك الشيئ، أما المنهج الثاني الذي عبّر عنه الله تعالى بالخلق، فهو يسير حسب سنة الله ووسائله المتوافرة من عنده، وقد كلّف الله تعالى الناس لاختيار هذا المنهج، فأكرمهم بنظام الوسائل والأسباب، وكلف الأنبياء لها، فكانوا يشاركون في الحروب ويكابدون فيها المشاق، ثم ينالون الفتح والانتصار، وإذا صدر في الحروب منهم تقصير واجهوا الفشل والهزيمة، رغم أن الله تعالى إذا شاء حصل لهم الفتح بمجرد مشيئته، وأحدث ذلك رعبًا في قلوب الكفار، بحيث إنهم ينهزمون أمامهم، ولا يحاربونهم، أو يمكن أن يمنحهم الله قوةً تكسب لهم الفتح بحضورهم في الحروب، لكن الله تعالى لم يفعل هذا وذاك، بل أمر الناس باختيار نظام الأسباب، الذي أجراه في هذه الدنيا، وأخبرهم بأنه إذا كان هناك تقصير واجه المسلمون من الخسارة كما يواجه الكفار.

حكمة تكليف الإنسان:

خلق الله تعالى الإنسان، وكلفهم لاختيار الأسباب، ليرى أعماله، وإذا أنجز الله كل شيئ، ولم يصدر من الإنسان عمل، ويتم كل شيئ من الغيب، فلا يُعرف من عمل الإنسان هل هو صحيح أم خطأ، فليس وراء نظام الذرايع إلا أن يختبر الله تعالى إيمان الإنسان وإخلاصه، ويعرف المخلصين الذين يؤثرون رضا الله تعالى، على أهوائهم، وهم مستعدون لتقديم كل نوع من التضحية، فيجزون وفقًا لهذا الإخلاص، وإذا لم يثبت عن الإنسان: هل هو صالح أم سيئ؟ فلا يكون عمل الجزاء، لأن الله تعالى إذا أنجز كل شيئ من الغيب فلا يستحق الإنسان أن ينال جزاء عمله.

إنه يعلم الجهر وما يخفى:

إن النظام الذي جعله الله وضعه عنده، وهو نظام يخفى على الناس، ويسير سيره الطبيعي، لكن لا يعرف حقيقته أحد، ويطلع الإنسان على ظاهره، ويعتبره كل شيئ، رغم أن الله تعالى يعلم الجهر وما يخفى، ومثال ذلك أن رجلاً يسعى ويجهد، ويتعب نفسه، ويستعمل أعضاءه وجوارحه في إنجاز عمل ما، فلو رآه أحد ظن أنه مخلص في عمله، لكن الواقع أن نية ذلك الرجل ما هي؟ وكيف يعمل هو؟ لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو مسجّل عند الله، فلا يسجل عنده ظاهر العمل، بل يسجل عنده ما يخفى وراء هذا العمل من نية صادقة أو كاذبة.

ومثال آخر: نحن نصلي بخشوع في الظاهر ويمدح الناس

صلاتنا وعبادتنا، فليس الظاهر هو الأصل، بل الأصل اللافت للنظر هو أن ما وراء هذه الصلاة من نية، فإن صلاتنا تأتي أمامنا يوم القيامة في صورة حسنة أو سيئة حسب نياتنا وإخلاصنا، فعلم منه أن جميع أفعالنا في الصلاة تابعة لإخلاص النية أو إساءتها، وقد ورد في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم: من صلى الصلاة لغير وقتها فلم يسبغ لها وضوءها ولم يتم لها خشوعها، ولا ركوعها ولا سجودها، خرجت، وهي سوداء مظلمة، تقول: ضيّعك الله كما ضيعتني، حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفت كما يلف الثوب الخلق، ثم ضرب بها وجهه[1].

الظاهر والباطن:

إن ما يجري في هذا الكون يستمر وفق ما أمره الله تعالى، وكل ما نعمله في هذه الدنيا هو وجه ظاهر لهذا النظام، وهو ما نراه، ويدخل فيه عملنا، لكن هناك نظامًا باطنًا، لا يعلمه إلا الله تعالى، وهو الذي يقدر على تغييره وتبديله، كما يظهر من قصة موسى والخضر عليهما السلام، كسر الخضر عليه السلام جزءًا من سفينة الأجراء، فيخيل للناظر إليه أن الخضر كسر سفينةً جديدةً وجميلةً، لكن نظام الباطن يدل على أن الخضر أراد تفادي هذه السفينة من الملك الغاصب، كذلك في قرية لم يستضفهما أهلها، أقام الخضر عليه السلام جدارًا ساقطًا فيها، كان في الظاهر عملاً حسنًا، لكن ما هو الهدف وراءه، ولماذا فعله الخضر عليه السلام،

---

[1] المعجم الأوسط: ٣٠٩٥.

وليس لأحد علم بهذا، هذا هو العمل الحكيم الذي إذا لم يخبر به الخضر سيدنا موسى عليه السلام، لم يطلع عليه موسى عليه السلام، وكان موقوفًا عنده، ذكر الله هذه القصة في القرآن الكريم أنه ليس كل شيئ في اختيار الإنسان، ولا يمكن أن يطلع على تفاصيل الكون، وقد خيّره الله تعالى لإدارة نظام الكون الظاهر، وإذا كان فيه شيئ يكرهه استبدله الله بشيئ أحسن منه، فليس من الواجب فيه أن يطلع الإنسان على حكمة التغير والتبدل.

غاية النظام الدنيوي:

بعث الله تعالى الإنسان إلى هذه الدنيا للامتحان، فجعل نظام الدنيا في صورة ينخدع منها الإنسان، حتى إذا لم تكن نيته صالحةً يصاب بسوء الظن، مثال ذلك أن حب الدنيا تغلغل في أحشاء الناس، وضعفت فيهم فكرة الآخرة، فلم تكن عندهم فرصة لترقب الآخرة، وقد سرى هذا المرض في الطبقة الارستقراطية إلى حد لا بأس به، ولم يخطر ببالهم أبدًا ما ذكر الله تعالى من أمور الآخرة في القرآن الكريم، الواقع أن الإنسان إذا وضع نصب عينه فكرة الآخرة حرم لذة الطعام والشراب، وزال عنه رواء المادية وبهجتها، ومعلوم أن الإنسان إذا عرف أن هناك حياةً يجزى فيها الإنسان على سوء أعماله، ويوفر له من الطعام العفن، فكيف تكون حياته مطمئنةً، لا يهنأ له عيش، ولا يمرأ له طعام، لكن الإنسان لا يفكر شيئًا في شئون الآخرة، وإذا تناول فكرة الآخرة وفكر فيها لحظة اعتبر من رجال الدين والصلاح.

سيطرة على نظام العالم:

إن ما ذكر الله في هذه السورة من قصص، تدل على أن نظام العالم لا يجري بإدارة الناس، ولا بتدابيرهم، وإن كان الله قد أمر الناس باختيار التدابير، لكن لا بد للإنسان أن يفكر من هذه الناحية أن هذه التدابير كلها بيد الله تعالى، وكل ما يقع في هذا العالم يقع بأمره، فيخطئ كل من يعتقد أن الله تعالى خلق العالم ثم استراح، أو خلق العالم ووكله إلى آخرين، هذه الفكرة تنشأ في أذهان الناس عامةً، لأن النائبين في الحكومات والإمارات ينجزون عامةً جميع الأعمال، ويكون بأيديهم كل شيئ من أمور الحكومة، لكن نظام الله لمختلف جدًا من النظام الدنيوي، ليس بينه وبين الإنسان وساطة ولا وسيلة، كل إنسان يتصل مباشرةً بالله، حتى الأنبياء ليسوا وسائط بين الله وعباده، وقد أُمر كل عبد أن يسأل الله عز وجل جميع ما يريد، فالله تعالى رحيم وكريم، يسمع كلام كل إنسان، ويمد هؤلاء وهؤلاء من عطائه، وقد جعل الله للسؤال منه أكبر وسيلة، وهو الدعاء، فعلى كل من يريد إنجاز أمر أن يسأل الله عز وجل، ولا يتسكع في غياهب الظلام ولا يعتقد عن الآخرين أنهم يحملون قوةً وتأثيرًا مثل الله تعالى، وليعلم أن الأمة لا تستطيع أن تضر أحدًا إذا لم يشأ الله تعالى، ومعلوم أن كل شيئ في هذه الدنيا يتم بنظام وترتيب، فالله تعالى يوجه الإنسان إلى هذا النظام، فليس معنى ذلك أن هذا النظام مؤثر للغاية، بل خلق الله هذا النظام، وهدى الإنسان إليه، وهو يعرفه بعقله وتجربته، فلا بد من استحضار هذا الفرق أن

نظام الذرائع في جانب، وأمر الله تعالى في جانب آخر، ويكون قضاء الله تعالى في كل ذريعة، وتكون الذريعة تابعةً لقضائه.

مخلوقات الله تعالى:

الماء والهواء خلقهما الله تعالى، فإذا زادهما من مقدارهما كانا مصيبةً، وإذا نقص منهما ماتت المخلوقات عطشًا، وقد ورد عن الماء والسحاب أن الله يأمر الملائكة، فيذهبون بالسحاب وتمطر السحاب حيثما شاء الله، لكننا نظن أن السحاب جاء فجاءةً، وأمطر الماء، أو نظن أن المطر نزل بالفصول السنوية، رغم أنَّ الله تعالى هو الذي قرّر كل شيئ من عنده.

ابتغاء وجه الله تعالى:

أخبر الله تعالى الإنسان في ضوء القصص القرآنية أنه إذا قضى حياته ابتغاء مرضاة الله حالفه نصر من الله، وبارك في علم الوسائل والأسباب، أي أن شيئًا قليلاً كفى لكثير من الناس، وتتبدل الأوضاع، والله قادر على أن يبدِّل الأوضاع بدون وسيلة، هذا ما نسميه معجزةً أو آيةً من الله، ولا تنزل المعجزات عامة، لأن هذه الدنيا دار امتحان، وقد جعل الله الإنسان تابعًا للوسائل لمعرفة مدى إيمانه بالله وتوكله عليه، وأحيانًا يرى الإنسان أن وسيلةً فلانيةً تناسب لهذا العمل، وأن رجلاً فلانيًا أجدر به، أو أن دواءً خاصًا أنسب لهذا المرض، أو أن طبيبًا أصلح في معالجة هذا المرض، ورغم ذلك كله إذا اعتقد إنسان أن الله تعالى هو الفاعل الحقيقي، وهو الذي أودع فيه تأثيرًا ونفعًا، وهو الذي دبّر

الأمور كلها، ولا يزال يدبر أفلح ونجح في الامتحان.

ليس من الميسور أن ينجح الإنسان في اختباره عند السراء والضراء، إذا كانت الأحوال معقدةً صعب على الإنسان العمل بمتطلبات الإيمان، وإذا كانت سهلةً وقع الإنسان في حبالة الوسائل والأسباب، وضعف إيمانه، واعتقد أن النظام كله يجري على أساس الوسائل، لأنه تابع بذاته للأسباب، مثال ذلك لو أن رجلاً ادعى أنه يسوق سيارته بدون النفط أو البنزين، فلا يمكن ذلك، وإن اشتغل بالدعاء، لا تتحرك السيارة ولا الدراجة، فالإيمان يتطلب منه أن يؤمن بقدرة الخالق المطلق، ويؤقن بأن الله قادر على إحداث أمر خرقًا للعادة، فإذا شاء ساق السيارة بدون النفط، وكل نظام بيده، فإذا علمنا عملاً لابتغاء مرضاة الله تعالى، حصل لنا نصره وتأييده من الغيب على أحسن صورة، وإذا ارتكبنا معصيةً فإنه يؤاخذنا في الآخرة التي هي دار الحساب، ونحن نصرخ ونصيح، لكن لا يُسمع كلامنا، بل يقال: ذوقوا بما كنتم تعملون، ذكر الله تعالى في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا هذه الحقائق لئلا ينخدع الإنسان من الوسائل الظاهرة.

لاتنخدعوا من الظاهر:

إذا رأى الإنسان من ظاهر عينيه الكون خُيل إليه أن كل ما حدث ويحدث في العالم يجري من دون إله، على أساس الأسباب الدنيوية، وهذا ما يتجلى من ظاهر الأمر، مثال ذلك إذا ضربت أحدًا شعر بألم، ويقال: ضربه أحد فأصيب به، لكن لماذا ضرب،

ومن الذي أمره بالضرب، فامتثل لأمره؟ فإذا لم تكن هذه الصورة ظن الإنسان أنك ضربته بنفسك، لكن يمكن أنك لم تضربه بنفسك، بل ضربته بأمر من سيده، فإذا ظننت أن الضارب يضرب بنفسه، كنت ساخطًا عليه، وإذا ظننت أن رجلاً أمره بضرب أحد، فازداد غضبك عليه.

مثال آخر أن فلانًا أهدى إلى شخص هديةً، وذلك بأمر من رجل، أو أعطاه أحد لإيصاله إلى أحد، فيظن المهدى إليه أن هذا الرجل يهدي إليه، فيكون شاكرًا له، لكن إذا علم أنه لا يهدي إليه بنفسه، بل هو واسطة بينهما، فلا يكون المهدى إليه شاكرًا للواسط.

إن نظام العالم يجري بهذا الترتيب، وكل شيئ يكون بأمر من الله، لكن الله تعالى جعل له وسائل وذرائع، ونحن ننظر إليها، ولا ننظر إلى الله، فنظن أن كل شيئ يجري بالوسائل والذرائع، أي نعتبر الوسائل أصلاً وغايةً، والله هو الخالق والمالك لهذا الكون، لكن الله أخفى هذا الأمر، ليبلو الإنسان، وإذا علم الإنسان أن كل شيئ من الله، واعتقد به اعتقادًا جازمًا، ما عصى الله قط، وإذا علمنا نحن وآمنا به ما عصيناه، فهذه حقيقة أن إنسانًا لا يدخل في النار بنفسه، وهو يعلم أن النار تحرقه، فالعلم هو الأصل، وقد أخفاه الله تعالى، وكان هذا الإخفاء ليؤمن الإنسان بقول النبي المرسل صلى الله عليه وسلم، ويعتقد أن كلامه حق، فإذا لم يؤمن الإنسان بالنبي ولا بكلامه ولا بنبوته، وما قال النبي من أن الإنسان يحاسب في الآخرة، فليكن مستعدًا لمحاسبته، فإذا كان عمل الإنسان وفق شريعة الله كان

حسابه سهلاً، وإذا لم يكن كذلك خسر خسارةً كبيرةً، فإذا لم يؤمن الإنسان بهذه الأمور لا يكون إيمانه كاملاً.

وقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1]، لا شك أن الإنسان إذا آمن بهذا الواقع لا يأثم ولا يذنب، لكن إذا ما آمن الإنسان به فيكون مرتكبًا للمنكرات والفواحش، وقد أرسل الله الأنبياء والرسل لبيان هذه الحقيقة، فينظر الله إلى الإنسان: هل ثبت في عقله هذا الاعتقاد، أو تغلغلت وسائل الدنيا فيه، فلو وضع إنسان إصبعه على سكين، وكان السكين في يد إنسان آخر، فأيقن بأنه إذا حرّك السكين قطعها، لكن إذا لم يضع إصبعه عليه، بل يهدده صاحب السكين بقطع إصبعه فلا يؤقن بكلامه، فإذا لم يكن عند الإنسان يقين وإيمان لا يكون مطيعًا كاملاً لأوامر الله تعالى، وقد جعل الله تعالى هذه الدنيا زينةً لها، ليمتحن الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[2]، ومعنى زينة الحياة الدنيا هو أن ننظر من أن يعمل الإنسان عملاً صالحًا رغم مغريات الدنيا، ويطيع الله إطاعةً كاملةً، والدنيا مملوءة باللذات والمنافع والشهوات في جانب، وفي جانب آخر أمر الله عز وجل ونظامه المحكم، وذلك ليعرف من يقع فريسةً للشهوات، ومن يعبد الله تعالى.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الزلزلة، الآيتان: ٧–٨.

[2] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٧.

أعمال الإنسان في الدنيا والآخرة

الخالق الحقيقي:

يدعوالأنبياء أممهم إلى هذه الحقيقة أن الله هوالخالق الحقيقي، ويقولون لهم: لا تنظروا إلى قدرة الله نظرة ازدراء وسخرية، هذه هي حقيقة واضحة في رابعة النهار، فإذا لم تؤمنوا بها لحقت بكم خسارة الدنيا والآخرة، وأنتم تعتقدون اليوم أن كل ما دون الله يؤثر في أعمالكم ونشاطاتكم، لكن الواقع أنه لا يحمل شيئًا من التأثير، وكيف تظنون أن تمثالاً من حجارة يضركم وينفعكم، واعلموا أن الله هو مالك كل شيئ، وهو الذي خلق كل شيئ، ومنح الإنسان نعمًا كثيرةً، ورزقه نعمة الحياة، وما يوجد في الحياة من متطلبات وحاجات، فهو يراقب عليها مباشرةً، الحقيقة أن الإنسان إذا اعتقد أن الله هو الفاعل الحقيقي في كل شيئ فلا يعصيه، ونحن في هذه الحياة الدنيا نخاف من الشرطي، والضابط الرسمي، لأننا نعلم أنه يفعل ما يشاء حسب إرادته، ولا يبالي بما نحمل من كفاءات ومواهب، فلا يمكننا أن نخرق قانون البلاد، ولا نعصي أمر رئيس المديرية أو ضباط الأمن.

فالله عز وجل إذا رأى من عباده الصالحين عملاً حسنًا قام

بتغيير يسير في نظام الدنيا، لئلا يصاب عباده بأذى في الدنيا، فيبدل الله ذلك الشر بالحسنة، ذكر الله تعالى قصص بعض عباده في سورة الكهف، وأخبر من خلالها وهو يخاطب الناس: اعلموا أن كل ما يكون في هذه الدنيا يكون وراءه قدرة الله تعالى، فلا بد للعباد أن يرضوا الله تعالى، وإلا تعود عليهم في الآخرة خسارة فادحة، وذكر القرآن الكريم أن الآخرة لا ينفع فيها بيع ولا خلة ولا شفاعة، فكيف ينجو الإنسان من عذاب الله تعالى، ولا يكون هناك تغيير في نظام الله تعالى، وكل ما يمكننا من الإيمان والعمل الصالح هو في هذه الدنيا، ورزقنا الله هذه الحياة لنعمل فيها عملاً صالحًا، ونستحق الجنة ونعيمها، وإذا لم يكن عندنا عمل لا نجد شيئًا مما أعده الله لنا في الجنة لعباده الصالحين.

أرض الحشر:

لم يخلق الله أرض الحياة الأخرى مثل أرض الدنيا، فقد أودع الله فيها من الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان، وهذه سنة الله في الأرض أن الإنسان إذا بذل جهده في حرثه، أو غرس شيئًا أو زرع زرعًا أنبته الله نباتًا حسنًا، وأخرج له ثماره، وإذا أنزل الله مطرًا تناول منه الإنسان الماء لحرثه، وهذا كله من الله، لتبقى حياتنا، لكن أرض الآخرة ليست كذلك، وتكون أرض الآخرة جرزًا، فلا ينبت فيها شيئ، لا شجر، ولا ظل، ولا تصلح هذه الأرض أن نزرع فيها، ولا يكون هناك لباس يلبسه الإنسان، ويكون جميع الناس عُراةً بدون ثياب، فإنهم حينما يُبعثون من قبورهم لا يحملون

شيئًا يلبسونه، قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله! الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: يا عائشة! الأمر أشد من أن يهمهم ذلك[١].

ويكون الناس يوم القيامة في ساحة الحشر في حيرة ودهشة، يفر بعضهم من بعض، ولا ينظر رجل إلى امرأة، كل يقول: نفسي، نفسي، وتكون حرارة الشمس أشد ما يمكن، بل تكون الشمس فوق الرؤوس، والناس يتصببون عرقًا، لا يجدون ماءًا للشراب، ولا مكانًا للجوء إليه، ولا يجدون مواسيًا ولا محاميًا، ويظهر العجز والمسكنة من كل إنسان: رجلاً كان أو امرأةً، حرًا كان أو عبدًا.

تذكرة وموعظة:

ورد في القرآن والحديث بكل وضوح أن ساعةً حاسمةً ستأتي في الآخرة أمام الإنسان، فيؤخره الله في الدنيا إلى أجل مسمى، ويمنحه هذه الحياة الدنيا، فعليه أن يستعد للآخرة، فإن الله جعل الدنيا مزرعةً للآخرة، وكل ما يعمل في هذه الدنيا يحصد نتيجته في الآخرة، كما أن الإنسان إذا غرس شجرًا، أو زرع زرعًا وجد ثماره، كذلك إذا عمل عملاً في هذه الدنيا وجد جزاءه في الآخرة، إما في صورة قصر أو في صورة بيت، وقد ورد في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة[٢]، وقال في حديث آخر: ما من عبد يصلي لله كل يوم

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر: ٦٥٢٧.

[٢] سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب من قال سبحان الله، رقم الحديث: ٣٨٠٠.

ثنتي عشرة ركعةً تطوعًا غير فريضة إلا بنى الله له بيتًا في الجنة[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: ما من عبد مسلم توضأ فأسبغ الوضوء ثم صلى لله كل يوم إلا بنى الله له بيتًا في الجنة[٢]، وقال: من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتًا في الجنة[٣].

النية أهميتها والحاجة إليها:

فالشرط الأساسي للأعمال الأخروية التي ورد ذكرها في الأحاديث المذكورة أعلاه هو أن يكون كل عمل لابتغاء وجه الله، ولا يكون فيه حظ للنفس والشيطان، ولا يهدف العمل إلى سمعة أو صيت حسن، ولا نفع عاجل، هذا العمل صعب إلى حد كبير، وليس سهلاً، ولا يبني الله بيتًا في الجنة بدون عمل خالص لوجه الله، بل لا بد له من نية صالحة، نحن نصلي ونصوم، لكن جُعل مدار عباداتنا على النية، فالإنسان يُجزى على عمله حسب نيته، فإن الصلاة وإن كانت في الظاهر جميلةً ومؤثرةً، لكن إذا كان في النية زيغ أو شائبة دنيوية، فلا تحصل لها فائدة ونفع، لأن الله يرى قلب كل إنسان، فالامتحان الحقيقي لهذا القلب ليس بظاهر الجسم، لأن الظاهر علامة وهيكل لرؤية الآخرين، فلا بد من

---

[١] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض: ١٧٢٩.

[٢] صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض: ١٧٢٩.

[٣] صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب فضل بناء المساجد: ٧٦٦١.

تزكية الباطن، فعلى سبيل المثال إذا كان هناك رجل يساعد أحدًا فيمكن أن يساعده لينال فوائد دنيويةً، أو يساعده لأنه أحسن إليه، أو يساعده لمجرد إنسانيته، وهذه الغاية الأخيرة لها شأن كبير، لكن إذا ساعده لمصلحة دنيوية لم يحصل له أجر ولا ثواب.

وقد جاء في الحديث النبوي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريئ، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلَّم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال، كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه، حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها، قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت، ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار[1].

يدل هذا الحديث على أن الأصل في الأعمال هي النية،

---

[1] صحيح مسلم، رقم الحديث: ١٩٠٥.

فكل ما نعمل من عمل، إن كان ذلك العمل لابتغاء وجه الله فيحمل قيمةً وقدرًا، ويكون له تأثير في الآخرة، بحيث يبني الله بيتًا، أو يجري نهرًا، أو يشيد قصرًا، أو يهيئ أنواعًا من الفواكه والثمرات، لكن هذا كله نتائج الأعمال الدنيوية، ولا يسمح للإنسان في الآخرة بأن يعمل عملاً يستحق به النعم الأخروية، فأعمال الدنيا هي ثمرات الآخرة، ولا يمكن لإنسان أن يعمل في الآخرة، فكل من عمل في الدنيا من عمل وجد جزاءه في الآخرة.

قدرة الله التامة:

تدل سورة الكهف على أن الإنسان يعتقد الدنيا غايةً ونتيجةً، رغم أن الأمر ليس كذلك، فالدنيا تفنى وتبيد، وما يرافق الإنسان إلى الآخرة هو عمله، فإذا كان عمله حسنًا نال مكانًا حسنًا في الآخرة، وإذا كان بالعكس كان مصيره إلى النار، فأخبره الله في آيات هذه السورة بأن يؤمن بكل ما أمر به الله، ولا ينخدع من هذه الدنيا الفاتنة، وقد ضرب الله أمثلةً لبيان هذا الواقع، وكشف عن قدرته الكاملة في ضوء قصص الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]، بيّن الله تعالى في هذه الآية كمال قدرته، وذكره في القرآن الكريم لينتبه الناس من غفلتهم، فلا يُطلع الله على

---

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

أمثال هذه الصور والأشكال كل إنسان، فإنه أطلع على هذا الواقع سيدنا إبراهيم عليه السلام، الذي كان أكمل الأنبياء إيمانًا وتصديقًا، ليطمئن قلبه وينشرح صدره.

لفتة خاصة:

أمر الله في القرآن بالإيمان بالغيب، ومعنى الإيمان بالغيب هو الإيمان بالله بدون دلائل ظاهرة، لأن الله أمر به، وقد وصل هذا الأمر إلى الإنسان بواسطة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق، فكان قول النبي قول الله تعالى، وقول الله لا مجال فيه للشك والريب، فإذا أحرق أمام الإنسان نار، وقيل له: ستُطرح فيها فيهرب ويفر منها، لأنه يؤمن بأنه إذا طرح فيها احترق، فكان فراره بإمكان أننا سنطرحه في النار، لكن إذا ذُكرت أمامه نار جهنم فلا يتأثر شيئًا، كذلك إذا ذُكر أمامه أن ما يأكل في صورة الربا هو النجاسة فلا يشعر به ولا يلتفت إليه، ويأكله هنيئًا مريئًا، لكن الربا يظهر يوم القيامة في صورة النجاسة، ويتشكل في شكل لم يكن مثله في الدنيا، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج أنواعًا من عذاب الله، فلما سأل جبرئيل عنها، أجاب: هذه عقوبات أعمال دنيوية.

وقد ثبت من السنة الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بعض المعذبين ليلة المعراج، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوامًا ترضخ رؤوسهم بالصخر، وكلما رضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شيئ، فسأل: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال:

هم قوم تثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة[١]، وقال صلى الله عليه وسلم: ثم مضيت هنية فإذا أنا بأخونة يعني الخوان المائدة التي يؤكل عليها لحم مشرّح، ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح ونتن، عندها أناس يأكلون منها؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون الحرام[٢]، قال: ثم مضيت هنية فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ، فقلت: يا جبرئيل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا[٣].

يتجلى من دراسة هذه الأحاديث أن كل عمل من أعمال الدنيا يقدر بالنسبة إلى النية، وهو يظهر في صورة مادية في الآخرة، وقد ابتلى الإنسان بإخفائه في الدنيا، ليعلم أنه يؤمن بالله أم لا، أو يعتقده رازقًا أم لا، ويعتبره خالقًا ومالكًا أم لا، وأن الآخرة بيديه.

عقيدة منكري الآخرة:

فالذين لا يؤمنون بالآخرة ليسوا بمؤمنين، لأنهم يعتقدون أن كل شيئ يكون في الدنيا، ولا علاقة له بالآخرة، والواقع أن فكرة الآخرة إذا لم تكن لا يكون الإنسان ناجحًا، يمكن أن لا تظهر مضار فكرة رفض الآخرة في الدنيا، لكن الآخرة خير وأبقى، فيظهر فيها كل شيئ، وقد وضع الله كل شيئ في الدنيا للابتلاء والاختبار، فيتمتع الإنسان في الدنيا، ويفرح على سيئاته، ويمرح

---

[١] الخصائص الكبرى للسيوطي: ١/ ٢٨٤.

[٢] دلائل النبوة للبيهقي: ج ٢/ ٣٩٢.

[٣] دلائل النبوة: ٢/ ٣٩٢.

في المعاصي، لأنه يجد فيها لذةً وتسليةً ماديةً، وإذا قيل له: اشتغل بآخرتك فيقول بدون كلفة: سننظر ماذا يكون في الآخرة، معنى ذلك أنه لا يؤمن بالآخرة حق الإيمان، فلو آمن بالغيب ما تكلم بمثل هذا الهراء.

معنى الإيمان:

معنى الإيمان أن الله واحد، وبيديه كل شيئ، وليس بينه وبين الإنسان وسيط، فإنه يرى كل شيئ مباشرةً، وهو يملك قدرةً كاملةً على المحسنين والمسيئين، فالذين يتورطون في المعاصي، ويصرون على اقترافها، ويتقحمون في نار جهنم، فكانت سنة الله فيهم أنه يمهلهم، ويُملي لهم، ويجمع لهم الوسائل والفرص للتوغل في الحرام، لتكون أعمالهم حجةً عليهم، ولئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، وقد استعمل الله لأمثال هؤلاء: كلمة الاستدراج، والإملاء والإمهال، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[1]، وقال: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ، أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾[2].

---

[1] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٢–١٨٣.

[2] القرآن الكريم، سورة الطارق، الآية: ١٧.

القرآن الكريم وافتراءات النصارى

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا. قَيِّمًا لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا. مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا. وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1].

بدأ الله تعالى هذه السورة بحمده، وهو أجدر بالثناء والحمد، فإنه أنزل كتابًا هو كلامه، وكرَّم الإنسان ونعَّمه، بحيث منحه هذا الكلام، ولم تكن السماوات والأرض والجبال تتحمل هذا الكلام، قال تعالى: ﴿لَوأَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[2]، لكن كان فضل الله على الإنسان بأنه جعل القرآن سهلاً، ولم يجعل فيه عوجًا، فجميع آياته قيمة وسهلة، يستطيع الإنسان أن يفهم معانيها، وهي صحيحة وموافقة للواقع، ولا يحتاج الإنسان إلى كثير من الخوض والتأمل فيها،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ١–٦.

[2] القرآن الكريم، سورة الحشر، الآية: ٢١.

لكن كلام الإنسان يخيل إليه أنه صحيح أو خطأ، ويشك فيه رجل آخر ويرتاب، لكن كلام الله بريئ من هذا وذاك، والله أقوى وأكبر من كل شيئ، وأقدر على كل ما يعلمه الإنسان، فهو يستعمل قوته أحيانًا ضد المجرمين، فليتفكر عباده في هذا الشأن.

يبشر القرآن الكريم أولئك الذين يعملون الصالحات، وقد أخبر الله تعالى عباده بأنهم إذا عملوا عملاً صالحًا أعطوا جزاءً حسنًا، وهذا الأجر ليس موقتًا، بل يدوم إلى ما شاء الله، وينعم أصحابه بجنة النعيم.

غاية المعجزات الإلهية:

إذا حدث أمر خارق للعادة من الله تعالى سُمي معجزةً، وقد أكرم الأنبياء الكرام بالمعجزات، فكانت معجزة عيسى عليه السلام أنه إذا مسح بيده مريضًا أصبح المريض بريئًا من المرض، وأصبح الأعمى بصيرًا، ولم يكن ذلك بالأدوية والمعالجة بها، لكن وقع ذلك خرقًا للنظام، فكان معجزةً من الله تعالى، ويعطي الله الأنبياء هذه المعجزات ليستيقن الناس بكلام الأنبياء، ويؤمنوا بدعوتهم، لأن الأنبياء قدموا أمام الناس شيئًا كان خلافًا للعادة، وخارجًا عن قدرة الإنسان.

جعل الله تعالى القرآن معجزةً، وهو كلام لا مثيل له في العالم، كان في العرب شعراء كبار، كانوا يعتزون بشعرهم، وينطقون بكلمة لا يتكلم بمثلها أحد، لكن لما اطلعوا على القرآن دُهشوا وتحيروا منه، ولم يقل أحد منهم: إنني أتحداه وأحاكي

أسلوبه، رغم أن القرآن تحداهم علنًا وجهارًا بقوله: فأتوا بمثله إن كنتم صادقين. وبالنظر إلى هذا قال الله تعالى في بداية هذه السورة: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا، وذلك ليعلم الإنسان أن نظام العالم بيده الله تعالى، وهو الذي يدبر أمره، ليس معنى ذلك أن الله خلق العالم، ثم وكله إلى أحد، بل هو يراقب كل وقت نظام العالم، وهو يسير حسب مشيئته، ويقدر الله على تغييره أيضًا.

فصاحة العرب وأسلوب القرآن المعجز:

كان العرب أكثر تطورًا في اللغة العربية، وأكبر علمًا بدقائقها، وكانوا يتذوقون بالكلام العربي، فأنزل الله عليهم كتابًا أرفع شأنًا في اللغة والفصاحة والبلاغة، بحيث اضطروا إلى أن يقولوا بأنفسهم: ما هذا قول البشر، وهذه سنة الله في باب المعجزات أن القوم إذا كانوا ماهرين في فن أنزل الله معجزةً وفقًا لهذا الفن، لئلا يقول القوم: إنه لا يمكن ذلك، وقد شاع الشعر والأدب العربي في العرب، وكانوا يقدرونه حق قدره، والشيئ الثاني الذي كان شائعًا في العرب هو الكهانة، وكان الكاهنون يتكلمون بجمل مسجعة للإخبار بالغيب، فاختار القرآن الكريم كلامًا أعلى قدرًا من هذين الصنفين، فاحتار العرب منه، وكان مذبذبين في تسميته بالكهانة والسحر والشعر، وقالوا: هذا الكلام أرفع من هذه الأقسام، فلا نستطيع أن نأتي بمثله.

جعل الله تعالى القرآن آخر الكتب السماوية، وسيدنا محمدًا

صلى الله عليه وسلم آخر النبيين، وأنزل عليه آخر الشرائع الإلهية، وقد بعث الأنبياء في كل قوم، وجاءوا بشرائع مختلفة حسب أزمنتهم، لكن الله أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم شريعةً كاملةً، تساير ركب الحياة الإنسانية، وإن تغير الزمان وتبدل، بل تقدم هذه الشريعة حلولاً ناجعةً للقضايا التي تأتي في المستقبل، لأن العصر الذي يبدأ كان عصر العلم والمدنية، وكان أساس سائر التطورات في هذا العصر على العلم والمعرفة، فأكد الله تعالى في هذه الشريعة على العلم، وبدأ نزول أول وحي على محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ. اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

غايات نزول القرآن:

من أهم غايات نزول القرآن في هذه السورة أن هذا القرآن يبشر المؤمنين، الذين يعملون الصالحات، ووعد الله بهم الأجر الحسن، ويدوم هذا الأجر دوامًا لا ينتهي، لا يمكن أن يتصور الإنسان في هذه الدنيا عن شيئ أنه يبقى عنده إلى مدة، ويستفيد منه، لكن من حسنات الآخرة أن كل ما يكرم به الإنسان في الجنة يخلد خلود الزمان، ولا يخطر على باله خوف الموت.

الغاية الثانية لنزول القرآن في هذه السورة أن الله ينذر الذين اتخذوا لله ولدًا، وسيواجهون عذابًا شديدًا في الآخرة، كيف يعتبر

---

[1] القرآن الكريم، سورة العلق، الآيات: ١–٥.

هؤلاء لله عز وجل ولدًا، وما هو الأساس الذي يقوم عليه دعواهم، ما لهم به من علم، ولم يحدث أمر يتقولون بالنسبة إليه، إن دعواهم على القياس والظن، وقياسهم هو أنهم فرضوا لسيدنا عيسى عليه السلام أمورًا خارقةً، بانتمائهم إلى ابن الله، رغم أن عيسى عليه السلام كان نبيًا من أنبياء الله وعباده المقربين إليه، كذلك أفرط اليهود في شأن يعقوب عليه السلام، واعتبروا سيدنا عزيرًا ابن الله تعالى، رغم أن معنى المقرب والحبيب لا يسمح بأن يجعل ولدًا لله، فجميع الأنبياء هم عباد الله تعالى، هو الذي خلقهم، ورزقهم، فلن يكونوا أبدًا جزءًا من الله، لذلك قال الله: ما لهم به من علم ولآبائهم، وليس لهم دليل على هذا، هنا وقفة تأمل أن الله الذي خلق الكون، وأعطى الإنسان كل ما سأله، يسيئ الإنسان إليه إساءةً، فالله قادر على أن يهلك هذا المسيئ في ثانية واحدة، ويصيبه بأكبر مصيبة، لكن هؤلاء المسيئين لا يخافون الله تعالى، بل يتكلمون عنه بكلمات قبيحة نافرة.

الفرق بين العلم والظن:

نزلت الآية الرابعة في هذه السورة لإنذار الذين اتخذوا لله ولدًا، ثم قال تعالى: ما لهم به من علم ولا لآبائهم، إنهم يقولون هذا القول بالظن والتخمين، فالعلم باللغة العربية هو الشيئ الحقيقي، وإذا لم يكن ذلك الشيئ واقعًا ملموسًا لا يكون علمًا، بل يكون ظنًا، فاستعمل القرآن هنا كلمة العلم، معناه أن هؤلاء الناس وآباءهم كذلك ليس عندهم علم، ولا أساس قوي، بل

يقولون كل ذلك بالخرص والظن، ثم قال: كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبًا.

تسلية قرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم:

ثم قال الله مخاطبًا سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1]. أي أنك تشتغل بأمور الدعوة ونشر الإسلام كل وقت، كأنك تهلك نفسك، فلا حاجة إلى الهلع والجزع من ضلال الناس، بل كل ما يجري في هذا الكون كان مقررًا عند الله تعالى، وهو يعلم: مَن المهتدي ومن هو الضال عن الصراط المستقيم، لكنه أرسل رسولاً لئلا يكون على الناس حجة: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فبعث الله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل معه القرآن، فإذا لا يؤمن بعد ذلك أحد فقد أتم الله الحجة، وبلّغ الرسول الأمانة.

فتُوجِّه هذه الآية سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى أن لا يجزع من إيمان الناس، ولا يثبط همته عدم إيمانهم، فإن الله يعلم: ما يعمل الناس؟ لأنه خلقهم، وأكرمهم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، وهو خبير بطبائعهم وفطرهم، وهو الذي خلق الطبائع اللينة والشديدة، وهو مطلع على فِطرهم، وهو يعلم ماذا سيكون غدًا، كما يعلم أحوال الماضي، فليس الماضي والمستقبل عند الله منفصلاً، فإنه ينظر الماضي والمستقبل معًا، هو يعلم ما لا يعلم الإنسان،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٦.

ولعلكم تفهمون هذه الحقيقة بالمثال أنك جالس في غرفة، وليس عندك علم بما هوخارج الغرفة، فإذا دخل رجل الغرفة فأنت تعرف الرجل الذي دخل، لكن هذا الرجل إذا لم يدخل الغرفة، فلا يمكنك أن تعلمه، لكن الرجل الذي كان خارج الغرفة، يعلم مَن دخل الغرفة ومن لم يدخل، كذلك جعل الله الماضي والحال والمستقبل، فإن هذه الأزمنة الثلاثة أمام الله ككتاب مفتوح، وهو يعرف ماذا يحدث وما لا يحدث، بالنسبة إلى هذا قال الله تعالى لنبيه: لا تجزع ولا تضطرب، ولا تبخع نفسك بعدم إيمان المشركين، فإذا لم يؤمنوا بعد دعوتك إلى الله فليس عليك أي مسئولية.

لا شك أن الله رحيم كريم، لا يضل أحدًا بعلمه وقدرته، فإذا ضلّ وانحرف أحد كان له وجه، يمنح الله عباده خيارًا إلى حد، ولم يحصل هذا الخيار للحيوانات، فلا يمكن لحيوان أن يغرس غرسًا، أو يزرع ثمرًا، أو ينبت عشبًا، ويبذر بذرًا ولا يحفر حفرةً، ولا يجري سقيا ماء، فهو عاجز تمامًا، فإذا وجد عشبًا أكله، وإذا رأى بركةً شرب منه الماء، لكن الله جعل الإنسان مخلوقًا، يستطيع أن يعمل ما شاء، كأن الله منح الإنسان قدرةً وخيارًا إلى حد، ولم يكرم الإنسان بهذا الخيار إلا ليعلم الله أن الإنسان يستعمل في صالح الإنسانية أو في أضرارها، يملك الإنسان قدرة ارتكاب الذنوب، وذلك ليعلم الله أنه يجتنب السيئات أم لا، رغم أن الله يعلم جيدًا: من هو المهتدي ومن هو الضال، لذلك قال الله لنبيه: إذا كان الله يعلم حقيقة الإنسان، وهي ثابتة عنده، فلما يكون قلقًا؟

الصراع بين الإيمان والمادية

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[1].

يبدو أن هذه السورة لها صلة خاصة بفتنة الدجال، لأن المعاني والمفاهيم التي ذُكرت في هذه السورة تشير إلى هذه الفتنة، وفتنة الدجال هي فتنة المادية، وقرر الله المادية لامتحان الإنسان فقط، كما يتجلى من الآية المذكورة أعلاه، خلق الله تعالى هذا الكون، ووضع فيه أسباب الراحة والمتعة النفسية، فلم تكن هذه الأسباب كالمعرض المادي الذي يُعرض فيه المال، وكل نوع من لوازم الحياة، يأتي إليه الصغار والكبار ويتمتعون بالمناظر البهيجة، لم يخلق الله هذا الكون كمكان التسلية والتنزه، بل خلقه ليبلو الناس أيهم أحسن عملاً.

الموضوع الرئيسي لهذه السورة أن هناك نظامين في الدنيا: نظام بيد الله وقدرته، ونظام آخر يعتبر فيه الإنسان نفسه والأشياء المادية أصلاً، ولا يؤمن بما وراءه من قوة وغاية، وقد تغلب في هذا العصر هذا النظام الثاني، فالحاجة إلى أن نجتنب هذه الفكرة،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ٧–٨.

ونفكر في اختيار عقيدة صحيحة، كأن هذا النظام من صنع الدجال، والدجال علامة واضحة للفكرة المادية ونظامها، فإذا خرج الدجال تظاهر بأفعال وأعمال، يبدو منها أنه هو الأصل، ويحتل مكانة الإله الحقيقي، فيغري المؤمنين ويخدعهم، فينخدع الناس إلا قليلاً منهم، يُعصمون من فتنة الدجال، وحينما يظهر الدجال ينبذ الناس الإيمان بالله وراءهم ظهريًا، ويعتبرون المادية والصورة الظاهرة حقيقةً، وقد ورد في الحديث النبوي عن فتنة الدجال، قال صلى الله عليه وسلم: إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال[1].

تشير القصص الواردة في هذه السورة إلى الصراع بين الإيمان والمادية، فهناك فكرتان: إيمانية ومادية، أخبر المؤمنون بأن هذه الدنيا خُلقت للناس، فعليهم أن يستعملوها في صالحهم، لكنهم خُلقوا للآخرة، فلا بد أن تكون الآخرة نصب أعين الناس، ويستفيدوا من الدنيا حسب ما يحتاجون إليه، لأن هذه الدنيا لم تُخلق إلا لمصالحنا، وهي ليست في اختيارنا وقدرتنا.

غاية الزينة:

ذكرت الآية السابقة أن الله خلق الإنسان، وجعل كل ما على الأرض زينةً لها، وليس وراءه إلا الابتلاء، وغاية الزينة هي أن الإنسان إذا رأى شيئًا أعجب به، وتمتع به، هذه هي ميزة الأشياء المادية أن الإنسان إذا استعملها ارتاحت نفسه، ووجد في نفسه شيئًا

---

[1] سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال: ٤٢١٥.

من الراحة، وتتم منها حاجيات الفطرة الإنسانية، وقد تطور الإنسان في هذا المجال تطورًا كبيرًا، ولا شك أن المدنية التي وصلت إلينا من أوربا هي مادية بحتة، وحينما يتغلب على الإنسان فكرة المادية يعتقد أن كل شيئ في الكون خُلق بلا خالق، وليس وراء خلقه إلا الاستمتاع بملذاته، فليس عليه فضل أحد، أحسن إليه.

جانب متناقض للمادية:

أما أمر الله تعالى في الكون فهو متناقض للفكرة المادية، وما أودع فيه من حكمة فهو معارض لها، فهو يخبرنا بأن كل شيئ في الدنيا لم يخلق بدون خالق، بل الله عز وجل هو الخالق الحقيقي لهذه الكائنات، فإنه لم يخلقها عبثًا ولم يتركها سدىً، بل جعل لها غايةً، وهي ابتلاء الإنسان، فالله سبحانه يمتحن الإنسان في الدنيا ليعلم من هو أحسن عملاً، فقال تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1]، فكانت غاية هذه الملذات الدنيوية والمنافع المادية أن يمتحن الإنسان ويبتلى بأن يعمل عملاً صالحًا أو سيئًا، ويعمل حسب نفسه وهواه وفوائده الظاهرة أو ينقطع إلى منافعها العاجلة، ولا يبالي بأحكام الله تعالى، ذكر الله تعالى في القرآن حقيقة حياة المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[2] أي اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنه سيمنحهم الجنة، وبعد ما اشترى الله منهم الأنفس

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٧.

[2] القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية: ١١١.

والأموال منحهم الخيرة، وأذن لهم باستعمال هذه الخيرة، كما أن رجلاً يعطى شيئًا على سبيل العارية، وحينما يريد مالكه استرده منه، كذلك اشترى الله منا أنفسنا وأموالنا، فالمالك الحقيقي هو الله، لكنه لم يأخذ منا شيئًا، بل قال لنا: استعملوا هذه النعم ما دمتم في الدنيا أحياء، فإذا فارقتم الدنيا رجعت هذه الأشياء إلينا، الواقع أن الله تعالى خلق الكون تحقيقًا لهذا الغرض، وحينما خلق الناس في أزمان وظروف خاصة فابتلاهم بها ليعملوا عملاً صالحًا.

التدبر في خلق الكائنات:

تشير سورة الكهف إلى هذا الصراع بين الإيمان والمادية، وهي تثبت في ضوء القصص أن كل شيئ لم يقع صُدفةً، بل خلقه الله تعالى، وله غاية وهدف، ولم يخلقه متعةً وتسليةً، بل وضع في كل شيئ حكمةً، فإن ما نراه اليوم من الوسائل المادية التي تطور فيها الإنسان تطورًا مدهشًا، واكتشف فيها الانترنت والآليات الحديثة التي يستفيد منها الناس، فلم يخلق هذه الأشياء الناس، بل اطلعوا عليها في ضوء دراساتهم وعلومهم، فهناك فرق بين الخلق والاطلاع والدراسة، مثال ذلك أن رجلاً وضع شيئًا ثمينًا في غرفة، وأنت لا تعرفه، فإذا دخلت الغرفة عرفته واطلعت عليه، الواقع أنك ما خلقت ذلك الشيئ، وما وضعته في الغرفة، بل عرفته واطلعت عليه، وبدأت استعماله، فلا بد لك أن تعرف قبل استعماله عمن وضعه في الغرفة، ولماذا وضعه؟ ولا بد لك أن تعرف هذين الأمرين، ثم يجدر بك أن تستعمله أم لا، كذلك

يسأل الله الناس، ويقول لهم: اعرفوا أولاً: من هو الخالق لهذا الكون، ولماذا خلقه؟ ثم يستحق لك أن تستعمل أدوات هذه الدنيا، ولا يجوز لك قبل معرفتها استعمال أشياء هذه الدنيا.

إذا بحث الإنسان عن هذا السؤال: من خلق هذا الكون؟ انكشف له أن الله عز وجل خلقه وقدَّره، ثم ينتقل الإنسان إلى الإيمان به، ثم ينشأ في ذهنه: لماذا خلق هذا الكون، وما هو الهدف وراءه، ليعيش الإنسان حسب مرضاة الله تعالى، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى في قوله: إنكم خُلقتم للآخرة، والدنيا خُلقت لكم[1].

ذكرت في هذا الحديث غاية خلق الدنيا والإنسان، فكانت غاية خلق الدنيا أن تستوفي حاجيات الإنسان، وتمنحه منافع كثيرةً، لكن على الإنسان أن يفكر في الآخرة، ويعمل حسب ما أمره الله تعالى، كأن الدنيا ذريعة للعمل وفق غايتنا، فلا نسرف فيها، ولا نخونها، ولا نغصب حقوق الآخرين، ولا نسيئ إلى أحد، ونستفيد من الدنيا حسب حاجياتنا، لأن الله عز وجل خلق هذه الدنيا لصالحنا، وخلقنا للآخرة، فنهتم بالآخرة، ونولي لها من العناية والاهتمام، ونتمتع بأسباب الدنيا وما نحتاج إليها، أو ما هو زاد لآخرتنا فيها.

بعث النبي صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة، وكان كفارها يؤمنون بالله، لكن يعتقدون معتقدات ماديةً، وكانوا

---

[1] شعب الإيمان للبيهقي: ١٠٥٨.

يقولون: إن الله تعالى قد فرغ من خلق كل شيئ، وكل ما يجري في الكون هو يجري فطريًا، ولا نسأل أمام أحد عنه، هذه هي نظرية المدنية الحديثة أن كل ما في الكون خلق فجاءةً، لم يخلقه خالق، ولم يصنعه صانع، ونحن نملك قدرةً لاستعمالها حسب إرادتنا، لأنها ملك لنا، فهؤلاء الناس لا يعتقدون عن وجود الله شيئًا، ولا يقرون بألوهيته، ويؤولون كل شيئ تأويلاً ماديًا، وأخيرًا يكونون حيارى ومشدوهين أمام قدرة الله تعالى، ويتقاصرون عن الإجابة عنه، فلو سأل سائل: كيف قام نظام هذا الكون الكبير بنفسه اضطربوا كثيرًا، ولم يردوا عليه شيئًا، لكن الأذكياء منهم يقولون: إن هذا الكون لم يخلق إلا بأكبر قوة في الكون، لكن الإيمان بها والانتماء إليها ليس في طبائعهم، لأن أساسهم مادي بحت.

ليس الظاهر أصلاً:

أرسل الله هذا الدين بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة، ووجههم إلى طرق مختلفة للعقيدة الإسلامية، هذه السورة تكشف هذا الواقع أن كل شيئ في الكون يقع بأمر من الله تعالى، ولا يجري بنفسه كما يسيل الماء بسهولة من المكان العالي، فالمرض يأتي من الله، والصحة يمنحها الله، وتكون أعمار الناس ثابتةً من الله، فالمكان الذي وُلد فيه الإنسان، والأسرة التي ينتمي إليها، والأوضاع التي نشأ فيها كانت مقررةً من الله تعالى، وذلك ما عبر عنه بالكتاب، وقبل أن يخلق الله هذا الكون قدر نظامًا، ثم أجرى الكون وفق هذا النظام، ولم يترك الله الكون بعد خلقه، بل كل شيئ يقوم بأمره،

حتى الأشياء الدقيقة والخفية في علم الله تعالى، وهي أيضًا تحت قدرته، كذلك الأدوية التي نستعملها تنفع بأمر من الله، وإذا أراد الله أن يزيل من دواء تأثيره لا يحول دونه شيئ، هذه هي عقيدة المؤمنين.

خطأ الماديين:

إن نظرية المادية تضاد عقيدة التوحيد، فإن رجالها يصرون على أنهم صانعو كل شيئ، فإنهم يعتبرون الاكتشاف إيجادًا وخلقًا، وإن كان يجوز استعمال كلمة الإيجاد على سبيل الكناية، لكن الواقع أننا ما خلقنا شيئًا، بل خلق الله كل شيئ، وهو الذي أعطانا حق التصرف فيه، لكن المالك الحقيقي هو الله، ولا يمكن لإنسان أن يفعل فيه شيئًا، مثال ذلك أن المحصولات الزراعية لا تنتج إلا بما أراد الله، ولو أراد إنسان أن يزيد فيها شيئًا لا يستطيع، وإن زاد المحصول الزراعي شيئًا استطاع الله أن يرسل عليه طائفًا من السماء، فلا يمكن لإنسان أن يقول: إني سأزرع زرعًا بهذا المقدار، ولا يمكن لبستاني أن يقول: سيأتي في بستاني ثمار كثيرة أو فواكه متنوعة، ولا يعرف هذا البستاني أن بستانه سيعطي ثمارًا أم لا.

ذكر الله تعالى في سورة القلم قصة مشابهة لهذا المثال: إن رجلاً كانت له جنتان، وتأتي فيهما ثمار كثيرة، فكان مرحًا على هذه النعمة، وكان يظن أن هذا من جهده وكد يمينه، وينشأ في ذهنه فكرة أنه كلما ذهب لقطف ثماره يأتي إليه الفقراء، فيزيدون من مشكلته، ففكر مرةً أنه يذهب لقطف ثماره قبل طلوع الشمس، حتى لا يأتي إليها الفقراء، وكان له صاحب وصديق، وهو يؤمن

بالله، فقال لصاحبه: لا تغتر بمالك، فكل ما أعطيتَ من المال هو من الله تعالى، فكما أن الله يعطي الإنسان شيئًا، كذلك يسلبه منه فجاءةً، لكن هذا الرجل المادي لم يلتفت إلى نصيحته، فطاف على الجنتين طائف من السماء وأحرق، ولم يبق له شيئ، هنالك اعترف بمعصيته وخطأه، وقال: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا.

فسورة الكهف مليئة بأمثال هذه القصص التي تكشف أن الله عز وجل قادر على أن يفعل ضد النظام الجاري في الكون، فعلى العباد أن يرجعوا إلى الله تعالى، ولا يعتمدوا على الأسباب والوسائل.

فرق بين المؤمنين والكافرين في التمتع باللذات الدنيوية:

ذكر الله في هذه الآية: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[1] [الكهف: ٧ – ٨]: إن ما يوجد في الدنيا من رونق وبهاء وبهجة ومنفعة لم يحرمها الله تعالى على المؤمنين في الدنيا، وإنهم يكرمون بهذه النعم في الآخرة، فيشاركهم في هذه النعم الدنيوية الكفار أيضًا، لأن الله أمهل الكافرين في التمتع باللذات الدنيوية، فالكافرون أحرار في الاستفادة من نعيم الدنيا، لكن المؤمنين ملزمون بشريعة الله تعالى، فيفرقون بين الحلال والحرام، والمباح وغير المباح، وهم يتمتعون بإذن الله تعالى بهذه النعم، بل أحسن وألذ منها في الجنة، أما الكفار، والعصاة المجرمون فيعاقبون بنتائج

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ٧–٨.

كفرهم ويكونون محرومين من نعم الجنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٢].

ضآلة الدنيا:

أشار الله تعالى، وهو يبين حقيقة الدنيا إلى أنه خلق دعائم الدنيا، لكنها لا تبقى أبدًا، بل يأتي يوم نكسر فيه هذه الدعائم، ونجعل الأرض صعيدًا جرزًا، ونجعلها قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ولا يبقى هناك إنس ولا جان، وإن ما تنظرون الآن من رونق، وما تزرعون من زرع، وما تلاحظون من جمال وزينة سيأتي يوم ينتهي فيه كل شيئ.

الإنسان خليفة الله في الأرض:

خلق الله عز وجل الدنيا لنا، لكن خُلقنا لعبادته، وجعل الإنسان في الأرض خليفةً، ليدبر نظام الله في الأرض، ويطبق قوانينه فيها وفق مرضاة الله تعالى، يتجلى من ظاهر الأمر أن الإنسان يدبر نظام الله، لكن الواقع أن الله هو المدبر الحقيقي، فإنه قد منح الإنسان خيارًا لأن يدبر هذا النظام، فالإنسان ليس أصلاً في هذا النظام، بل هوخليفة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2].

---

[1] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

[2] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ٣٠.

فكرة المادية والإسلامية:

بين المادية والإسلامية فرق كبير، ففي هذه السورة معان وحقائق لكشف هذه الفكرة، ولا بد أن نفهم هذه الفكرة من هذه الناحية أن الدنيا خلقها الله تعالى، وخلقها لاستكمال حاجيات الإنسان، فإن الله قد وفر للإنسان كل ما يحتاج إليه من التسهيلات في هذه الدنيا، وإن اختلفت صورها وتنوعت أشكالها، ومنها أن الله قد أودع في الأرض معادن وكنوزًا وزروعًا يستطيع الإنسان أن يزين حياته بها، ويستفيد منها، كذلك يختلف نظام الفضاء عن الأرض، فالأشياء المادية والمنتوجات الصناعية وغيرها من المنافع تحصل لنا من الأرض، وقد وضعها الله في الأرض، ليستفيد منها الإنسان في حياته.

فرصة ذهبية:

خلق الله تعالى حياة الإنسان للابتلاء، وراعى فيها ما يحتاج إليه الابتلاء، فإذا كان إنسان يعيش حياته منعزلاً عن الله، وبعيدًا عن فكرة الآخرة، ويعتبر الدنيا كل شيئ، ويظن الوسائل غايةً، فقد وفر الله لمثل هذا الإنسان فرصةً ذهبيةً لمراجعة أعماله، فإذا بقي واستمر في غيه عاقبه الله عقابًا شديدًا، لأن الله لم يخلقه للاستفادة من الدنيا، والتمتع بها، والاستراحة من منافعها، بل وضع أمامه غايةً، وهي أن يعيش الإنسان لابتغاء وجه الله تعالى، وأن يكون نظره إلى الوسائل المادية كما يكون نظر الأجير إلى أجرته، فيوفر له جميع ما يحتاج إليه، كذلك وضع الله في هذا الكون كل ما يحتاج إليه الإنسان، ومع ذلك قال: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ

الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[١] صرحت الآية بأن الدنيا لا تخدعنكم بحيث تنغمسون فيها، ولا يخدعنكم الشيطان، الذي هو أكبر خادع، فاهتموا بغايتكم، وأنجزوا حاجياتكم من الدنيا ووسائلها، فلا بأس به، وقد أمر الله بذلك في القرآن الكريم: قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

ذكر الله في هذه الآية أن ما وضع في الأرض من الطيبات والمنافع المادية هي للإنسان، وهي تكون أيضًا للمؤمنين، بل أحسن منها وأطيب، وهناك فرق يسير أن هذه النعم يستفيد منها في الدنيا الكافر والمنكر لله تعالى، لأن الله جعل الدنيا للامتحان، وخلق الإنسان ليبلوه: هل هو يتبع مرضاه الله أم لا، فيتوقف نجاح الإنسان وخسرانه على عمله، هل هو يعمل لابتغاء وجهه ويعتقد الله خالقه ومالكه، أو يعتقد الآخرين متصرفين في هذا الكون، فهناك وجهتان: وجهة لابتغاء وجه الله، وجهة للتمتع بالدنيا، والعيش حسب هواه ومنافعه العاجلة، ذكرت هذه السورة هاتين الوجهتين بغاية من الوضوح.

---

[١] القرآن الكريم، سورة لقمان، الآية: ٣٣.

[٢] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

قصة أصحاب الكهف وما لها من نتائج وعبر

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا

لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[1].

الرقيم هو الموضع الذي كان فيه غار أصحاب الكهف، وكان عددهم قليلاً، يحكم زمنهم الكفار والوثنيون، وكان ملكهم جبارًا وطاغيًا، يجبر الناس على الوثنية، لكن أصحاب الكهف آمنوا بعيسى عليه السلام، وعملوا بشريعته، فواجهوا مشاكل وصعوبات بإيمانهم، وأُجبروا على عبادة الأصنام، وإلا يعاقبوا،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٩–٢٦.

فلجأوا بدينهم إلى جبل، كان فيه غار شبه غرفة، ولم يكن هناك عمران، ولا يخشى إتيان أحد إليه، فاستتر هؤلاء في هذا الغار، احتفاظًا بدينهم وعقيدتهم، فأحب الله عملهم هذا، فسلَّط عليهم النوم عميقًا، ناموا فيه إلى ثلاث مائة سنة، فلما استيقظوا من نومهم ولم يعرفوا كم مدة ناموا في هذا الغار، إلا أنهم كانوا يشعرون بأنهم ناموا طويلاً، فلما استيقظوا شعروا بالجوع، فتحاوروا بينهم عن الطعام بأن يذهب واحد منهم خفيةً إلى المدينة لاشتراء الطعام، ولا يطلع عليه أحد، ولا يجبرهم على ترك دينهم، لكنهم لما خرجوا من غارهم عرفوا أن الحكومة قد تبدلت، واعتنق الملك الجديد المسيحية، فرحب أهل المدينة بهم، وقالوا: هؤلاء هم الذين تركوا ديارهم لمجرد احتفاظ دينهم وعقيدتهم، فنالوا شهرةً وصيتًا حسنًا.

يخبر نا الله تعالى من قصة أصحاب الكهف بأنه قادر على تبديل نظام عام، يمكن أن يحيى إنسان على أكثر تقدير إلى قرن أو ربع قرن، لكن أصحاب الكهف ظلوا أحياءً طوال ثلاثة قرون، ولم تتأثر أجسامهم بضعف أو انهيار، ولم يأكلوا خلال هذه الأيام شيئًا، فلم يموتوا، وإذا ما أكل الإنسان أيامًا مات حتف أنفه، كأن الله أخبرنا بهذه القصة أن ما تنظرون في الظاهر، وتظنونه كل شيئ ليس بشيئ، بل يكون وراءه أمر الله عز وجل.

من هم أصحاب الكهف؟

أصحاب الكهف فتية آمنوا بربهم، وكان إيمانهم أقوى،

بحيث ضحّوا في سبيله كل غال ورخيص، ولم يتنازلوا عن إيمانهم شيئًا، وكانت البيئة التي يعيشون فيها مشركةً، فتشاوروا بينهم، وقالوا: إن سكان بلدنا يعبدون أشياء تخالف عقيدتنا، ونحن لا نشرك في عبادة الله أحدًا غيره، فيمكن أن يجبرونا على عبادتهم، فلا نبقى على إيماننا، وكانت الحكومة آنذاك مشركةً، وكان من أوامرها الملكية أن تكون ديانة واحدة لجميع المواطنين، فقرروا أن يلجأوا إلى غار، ويختفوا فيه، وإذا ذهبوا إلى بلد أو قرية اطلع رجال الحكومة عليهم، وعاقبوهم عقابًا شديدًا، فذهبوا إلى مكان قفر، ليس به أنيس ولا جليس، وقالوا: ﴿رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[1].

نظام باطن لصيانة أصحاب الكهف:

جعل الله لأصحاب الكهف نظامًا غيبيًا خاصًا، فبسبب إيمانهم تنزل رحمة الله عليهم، وجعل الشمس إذا طلعت تزاور عن الكهف ذات اليمين، فلا تقع أشعتها وحرارتها عليهم، بل تتنحى قليلاً إلى اليمين، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال، وكانوا على غلوة منها، رغم أن طلوع الشمس وغروبها كان نافعًا لهم، لأن الله تعالى جعل أشعة الشمس سببًا من أسباب الحياة الإنسانية، فإن أشعة الشمس حينما تقع على الأرض يتكون منها طقس في الفضاء، يصلح للحياة الإنسانية، وينفعها، وإذا كان الإنسان محرومًا من حرارة الشمس ولا يستفيد من نورها أدى ذلك

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٠.

إلى الإضرار بجسمه، فالشمس إحدى الأسباب النافعة للجسم، ولا تزال تصل إلى أصحاب الكهف في الغار حرارة الشمس ما قدر الله تعالى لهم، لكن هذه الحرارة لا تضرهم، ولا تؤذيهم، فأعقبه الله: ذلك من آيات الله، فجعلها الله مفيدةً، ولا تكون حرارة الشمس في عامة الأحوال أكثر فائدة.

أساس الهداية والضلال:

قال الله تعالى: من يهده الله هو المهتد، ومن يضلل فلن تجده له وليًا مرشدًا، لا ينبغي لأحد وإن كان وليًا أن يدعي أن كل ما وجده من توفيق وخير من كد يمينه، بل يعتبره فضل الله ورحمته، فليست الهداية احتكار إنسان وحقه، بل هي عطاء الله ونعمته، وذكر الله بعد الهداية الضلال: من يضلل الله فلن تجد له وليًا ولا مرشدًا، لا يمكن لولي أن ينقذه من الضلال ولا لصديق أو ناصح، أو قريب، وليس له دليل يدله على خير أو حسنة، وكلمة "ولي" تحمل معاني عديدةً: ذو الرحم، وابن العم، والصديق أو الخليل.

وإن ضلال إنسان لا يكون بدون سبب، بل يكون بسوء أعماله وتصرفاته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]، فعلم منه أن المصيبة التي تصيب الإنسان وتلحق به هي بأعمال إنسان وفساده، فإذا رأى الله تعالى أن الإنسان أصبح متمردًا، يعادي الحق علنًا وجهارًا، فيقضي بنزول المصيبة عليه، رغم أن الله أمهله، وذكره تذكيرًا، فاستمر هذا

---

[1] القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية: ٣٠.

الإنسان في غوايته، وتمرغ في ضلاله فأنزل الله عليه العذاب.

عاقبة الكبر:

إذا استعرضنا الحياة الإنسانية رأينا أن إنسانًا لا يقبل في كثير من المناسبات أمرًا، لمجرد أنه ينهزم، ويصاب بالفشل، ويخيل إليه أنه لا يعرف الواقع، فتفاديًا من هذا الأمر يعادي الإنسان الحقيقة، ويبرر لتكذيبها دلائل وشواهد، تثبت دعواها، رغم أنه يعتقد أن على خطأ، هذا الموقف الذي يظهر من الإنسان يمقته الله، وإذا أصر إنسان على الضلال فأمهله الله تعالى، حتى يتورط في الغواية والضلال، ويغرق فيها ما شاء أن يغرق، فسيجد عاقبة كبره وخيلائه، ثم تأتي هذه المرحلة: ومن يضلل الله فلا هادي له.

جائزة على العزيمة الصادقة:

أخبر الله تعالى عن أصحاب الكهف بأنهم ثبتوا ثبات الجبال الراسيات، وبذلوا كل ما عندهم لصيانة دينهم وعقيدتهم فجعل الله لهم منعةً وقوةً، اعتبرت معجزة، وهيأ لهم من الأسباب التي لا تتيسر في عامة الأحوال، فإن أصحاب الكهف قدموا أنفسهم لكل تضحية، واختفوا عن الناس والمجتمع في مكان لا يصل إليه بلغة عيش، ولا شربة ماء، لكن هؤلاء واجهوا كل ذلك لمجرد إيمانهم وعقيدتهم، ورضوا بالموت في سبيل الله، ولم يتنازلوا عن إيمانهم قيد شعرة، فأكرمهم الله بنعم كثيرة خارقة للعادة.

نوم العافية:

سلط الله على أصحاب الكهف نوم العافية، فلو كانوا يقظين

لأفزعهم خوف الناس وبطشهم، وكانوا خائفين أن لا يصل إليهم أحد، وقد شغل ذلك بالهم، فجعل الله لهم نظام النوم، بحيث ناموا نومًا طويلاً إلى أن تأتي حكومة أخرى، وتؤسس دولةً إسلاميةً، وينتهي دور الظلم والاعتداء على أحد، ويحكم هناك رجال ثقات، وقد استغرق ذلك ثلاث مائة سنة، ثم حدثت ثورة، ووصل المؤمنون إلى سدة الحكم، فأيقظ الله عز وجل أصحاب الكهف.

نام أصحاب الكهف طويلاً لكنهم كانوا أصحاء، وجعل الله لهم نظامًا غيبيًا تحصل منه متطلبات البدن، رغم أن حاجيات الجسم الظاهرة لا تصل إليهم، فلا شك أن هذا كان فضلاً من الله ورحمة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[1]، وكانوا يتقلبون يمينًا وشمالاً، لأن الجسم إذا استقر بمكان لحق به ضرر وفساد.

كلب أصحاب الكهف:

وهناك نظام آخر من الله تعالى لصيانة أصحاب الكهف، وهو أن كلبهم الذي كان معهم ظل باسطًا ذراعيه بالوصيد، وجلس كالحارس على فم الغار، وكان الكلب نائمًا، لكن لا يرى نائمًا، وقد جلس أمام الغار في صورة لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا، ولملئت منهم رعبًا، والواقع أن رجلاً إذا رأى هذا المنظر من مسافة لا يدخل الغار، بل يظن أن هناك كلبًا يسكن، فلا حاجة إلى الذهاب إليه، وحكمة أخرى لجلوس الكلب هناك

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٨.

أن هذا الموضع لم يكن ذا عمران، ويمكن أن يأتي هنا صائد ضل الطريق، أو رجل مسافر دخل الغار، ثم إذا رأى أصحاب الكهف نائمين حاول لإيقاظهم، فأجلس الله تعالى الكلب على فم الغار، لئلا يأتي إليه أحد، وإذا وصل فجاءةً إليه ظن أن هذا الموضع مسكن للكلاب، فكيف يكون هنا ابن آدم؟ وقد استعمل الله بهذه المناسبة تعبيرًا جميلاً: وهو أن كلبهم باسط ذراعيه بالوصيد يحدق النظر إلى الواردين لئلا يهجموا عليهم، لو اطلعت عليهم لوجدت منهم فرارًا، ولملئت منهم رعبًا.

تخوفات أصحاب الكهف:

تأسست حكومة إسلامية في مناطق أصحاب الكهف التي خرجوا منها فرارًا بدينهم، وقد استيقظوا من نومهم، فبدوأ يتحاورون بينهم، ويتساءلون: كم لبثنا هنا في الغار، وقد شعروا بأنهم قد ناموا طويلاً، فخيل إليهم وقالوا: نمنا يومًا أو بعض يوم، ثم قالوا: لا يمكن أن نحكم بأنفسنا، والله أعلم بنا كم لبثنا، فلنترك هذا الموضوع، ولنتفكر في طعامنا وشرابنا، لأننا نشعر بالجوع الشديد، فأخرجوا ورقًا من عندهم، ثم أعطوا واحدًا منهم، وقالوا: فلينظر أزكى طعامًا، فليأتنا برزق منه، ولكن لا بد من مراعاة أمرين: أولاً: لا يشعر أحد بوجودنا، لأنه إذا ظهر علينا وانكشف سرنا رجمنا القوم، أو أعادونا في ملتهم، وإذا انحرفنا عن دين الله ضللنا ضلالاً بعيدًا، ولن نفلح إذًا أبدًا.

استعمل للنقود في الآية كلمة الورق، وكان الورق عامةً

مصنوعًا من الفضة، وأحيانًا من الذهب، وكان ورق الفضة رخيصًا، وورق الذهب غاليًا، فكان المراد من الورق هنا ورق الفضة.

لماذا ذكرت قصة أصحاب الكهف؟

ذكر الله قصة أصحاب الكهف بغاية من التفصيل ليعرف الناس أن وعد الله حق، وأن الساعة لا ريب فيها، فكل ما عمل الإنسان من عمل وجد جزاءه في الآخرة، فلا حاجة فيه إلى شك، لأن وعده حق، والحق باللغة العربية هو ما وافق الواقع، فكأن الله أنشأ بهذه القصة عقيدةً ثابتةً في قلوبنا أننا سنحاسب أمام الله تعالى بعد الموت، ليرسخ في أذهان الله فكرة الآخرة مع اليقين بالأعمال، واستعملت لليقين الراسخ هنا كلمة: ليعلموا، فكل من رأى مناظر أصحاب الكهف اعترف بكل صراحة: أن الله فعال لما يريد، فإذا كان الله قد صان أبدانهم إلى مدة ثلاث مائة سنة، فهو قادر على أن يفعل ما يشاء، فلا نشك أبدًا ما يقول الله عن الآخرة.

ردود عمل لأهل القرية:

مات أصحاب الكهف فطريًا بعد ثلاث مائة سنة، فلما تم دفنهم تنازع الناس فيما بينهم، ما هو موقفنا نحوهم؟ وكان أصحاب الكهف مسنين ذوي أعمار طويلة، فقال قائل: نحن نتخذ عليهم مسجدًا، وقال بعض: نحن نبني عليهم مقبرةً، لأن الناس قد تأثروا بهم للغاية، وحينما علموا أن الله أنامهم ثلاث مائة سنة، وكانوا أحياء، فيتهافت عليهم الناس تهافت الظمان على الماء، وكان عدد المؤمنين آنذالك كثيرًا، وأصبحوا في عدد هائل

فكانوا يقولون: نحن نبني عليهم مبنىً أو مقبرةً، قال تعالى: ربهم أعلم بهم، لكن الذين كانوا أقوياء، إما كانوا من أصحاب الحكومة وإما أذكياء الناس قالوا: نبني عليهم مسجدًا، ويمكن أن هذا المسجد قد بني، لأن الآثار التي توجد في هذه المنطقة، تدل دلالةً واضحةً على وجود المسجد هنا.

عدد أصحاب الكهف:

إن قضية عدد أصحاب الكهف أشد خطورةً، وقد وقع رجال ذلك العصر في حيرة وارتباك نحو عددهم، لأنهم لم يروا أصحاب الكهف بأم أعينهم، ولا يمكن لأحد أن ينظرهم منفردًا، فقال قائل: ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال قائل: خمسة سادسهم كلبهم، وقال بعض الناس: كان أصحاب الكهف سبعةً، وثامنهم كلبهم، أشار الله إلى هذا الجانب في القرآن الكريم، فقال: ﴿قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1]، ومعلوم أن كل من رآهم أول مرة هم يعرفون عددهم بصحة وإتقان، أما البقية فإنهم قالوا بظن وتخمين، فإن الشيئ الذي لم يروه كانوا يرجمون فيه بالغيب، وكلمة الرجم معناها الرمي بالحجارة، فرمي الحجارة إلى أي ناحية من النواحي يكون ذا عبرة، فقالوا قولاً لعله يكون صحيحًا.

خاطب الله نبيه قائلاً: قل ربي أعلم بعدتهم، فهذا الأمر لا حاجة إلى البحث عنه، المطلوب من هذه القصة هو العبرة والنصيحة، فإن قصة أصحاب الكهف ليست حدثًا للتاريخ، ذُكر

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٢٢.

على سبيل القصة، بل توخي منها الاعتبار والنصيحة، فوضع الله عدة أصحاب الكهف في علمه، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَآءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾[1]، لأن هذه القضية ليست ذات أهمية، فلا بد لنا أن نعرف من هذه القصة أن الله تعالى يعمل ما يشاء، وهو قادر على كل شيئ، فإن هذه القصة لم تحدث صُدفةً، بل لا يزال يقدم الله أمام الناس مناظر قدرته وعجايب خلقه.

توجيه مهم:

حينما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الكهف، فقال: سأخبركم غدًا، ولم يقل: إن شاء الله، فإن الله الذي هو أغنى عن كل شيئ يخاطب محمدًا صلى الله عليه وسلم، لكن يوجّه إلى المسلمين عامةً توجيهًا مهمًا، ذكره في القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذلِكَ غَدًا. إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللَّهُ﴾[2]، معنى الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يعتمد على نفسه، واثقًا بها، فإنه لا يدري ماذا يكون في المستقبل، وهو ليس في علمه ولا في خياره، ومثال ذلك: أنت تقول: نحن نفعل، ولم يمكن لك أن تفعل، فكان وعدك كذبًا، إلا أن الله إذا شاء كان، هذا هو الأسلوب الصحيح، ونظرًا إلى ذلك قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾[3].

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٢٢.

[2] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ٢٣–٢٤.

[3] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٢٤.

مدة النوم في الكهف:

ورد في القرآن الكريم أن أصحاب الكهف ناموا في الكهف ثلاث مائة وتسع سنين، وكانت هذه الثلاث المائة نظرًا إلى التقويم الشمسي، وتزداد ثلاث سنوات قمرية على كل مائة سنة، فكانت ثلاث مائة وتسع سنين بالنسبة إلى التقويم القمري.

جوانب متنوعة للعبرة في قصة أصحاب الكهف:

تشير قصة أصحاب الكهف إلى أن هناك وقائع وحوادث تقع بأمر من الله تعالى، وهي تدل على أن الله هو الفاعل الحقيقي وراءها، وإن كان يبدو في الظاهر أن وراءها شيئًا آخر، لكن الله هو المؤثر الحقيقي فيها، وأصغر مثال له أن ملعقًا يأكل منه الإنسان إذا لم تظهر يد الإنسان في الأكل، يظن الناظر أن الملعق هو يطعم الإنسان، رغم أن الواقع ليس كذلك، بل الرجل الذي يحرِّك هذا الملعق هو الذي يطعمه، فكل ما يحدث في هذه الدنيا يكون بأمر من الله تعالى، ثم يغيره الله حينًا لآخر، لأن كل شيئ تحت قضاء الله وقدره، فليس فيه تأثير من الخارج، ومثال آخر له أن هناك مدرسة أو مؤسسة، فاللجنة المسئولة عنها هي التي تدير هذه المدرسة، وهي تخطط مناهجها، وكم حصصًا تكون فيها، ومتى يكون التسجيل؟ وجميع الموظفين يكونون خاضعين لها، ويبدو من الظاهر أن هؤلاء الموظفين ليسوا مكلفين لأحد، وأنهم أحرار في أعمالهم، لكنهم في الواقع ملتزمون بأوامر اللجنة المسئولة عنها، فإذا لم يوافقوا على قوانين اللجنة كانت وظائفهم في خطر،

فكأن الله أشار بعد ذكر قصة أصحاب الكهف إلى أن لا يتتبع الإنسان في البحث عن عدد أصحاب الكهف، وكم مدة مكثوا في الغار، بل اعلم أن هذه القصة حقيقة كالشمس في وضح النهار، وأنهم مكثوا في الكهف مدةً من الزمن، ثلاث مائة سنة، وتكون ثلاث مائة سنة وتسع سنوات من التقويم القمري.

هناك جوانب أخرى في هذه القصة، منها أن الله تعالى قد أكرم أصحاب الكهف بالأجر الجزيل على نياتهم، وعاملهم معاملةً لم يعامل أحدًا من الناس عامةً، ذلك لأنهم ضحوا بكل نفيس وغال في سبيل الله تعالى، وقد بلغ إيمانهم بالله إلى أنهم لم يبالوا بأنفسهم، وجعلوا إيمانهم فوق كل شيئ، وقرروا أنهم يحرمون أنفسهم كل شيئ، حتى إنهم يحرمون أنفسهم من مباهج الدنيا، سواءً كانوا أحياءً أم أمواتًا، لكنهم يكونون بعيدين عن دار الكفر والشرك.

وقد أكرمهم الله بجزاء هذه التضحية الجسيمة أنه أنشأ فيهم روحًا جديدةً، فظلوا ينامون مطمئنين، حتى لم يعرفوا كم مدة ناموا في هذا الكهف، هناك لا بد من التأمل في أمرين: أحدهما أن بقاء الإنسان معافىً في جسده إلى مدة ثلاث مائة سنة أمر مستحيل، يندر مثاله في هذا العالم، لأن الله تعالى خلق جسم الإنسان في صورة، لا يقوم بنفسه، وهو يحتاج إلى غذاء، وينشأ الدم من استعمال الغذاء، وتنشأ قوة في الجسم بكثرة الدم، فإذا لم يجد الدم غذاءً وتوقف نشوء الدم لا يبقى الإنسان حيًا. وثانيهما أن جسم الإنسان إذا فقد روحه، أو زالت قوته تأكله حشرات

الأرض، ويكون جسمه بعد مدة عظامًا ورفاتًا، فلم يحدث مع أصحاب الكهف أمثال هذه الحالات التي تطرأ على الميت، ولم يشكوا في حياتهم ما ينقص قوتهم، فكانوا في حياتهم ونومهم تحت رعاية خاصة من الله تعالى، فصانهم الله تعالى من كلا الحالين، وظلوا أحياءً لكن ليسوا كعامة الناس، بل كانوا نائمين، وكانت عيونهم يقظةً، كأنهم اضطجعوا قبل قليل، وكان كلبهم جالسًا عندهم ينظرهم ويراقبهم كأنه يهجم على أحد، وفي هذه الحالة إذا رآهم أحد امتلأ دهشةً ورعبًا، وخاف من كلبهم كأنه يهجم عليه، ثم يهاجم عليه أصحاب الكهف.

هنا وقفة تأمل في هذه القصة أنه لما اشتد ت أوضاع مضادة للإيمان، وأصبح البقاء على الإيمان صعبًا هاجر أصحاب الكهف إلى الغار، وتركوا ديارهم، فنالوا ثواب الهجرة في سبيل الله تعالى، وقد ركز الله تعالى في القرآن الكريم على الهجرة كثيرًا، حتى قال في آية من القرآن الكريم أن الرجال الذين لم يهاجروا من مكة إلى المدينة، رغم أنهم كانوا يقدرون عليها يقبض الملائكة أرواحهم بكل شدة، ويقولون لهم: لِمَ لم تهاجروا في سبيل الله؟ فذوقوا جزاءً بما كنتم تعلمون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[1].

---

[1] القرآن الكريم، سورة النساء، الآية: ٩٧.

حذر الله أولئك الذين كانوا يقدرون على الهجرة ثم لم يهاجروا، حذرهم من عذاب أليم، وقد نهوا عن الإقامة في دار الكفر، إلا أن رجلاً كان مضطرًا إليها فلا جناح عليه، كما كان في صلح الحديبية، فكان من حكمة هذا الصلح أنه إذا نشبت الحرب بين الكفار والمسلمين، وتغلب المسلمون عليهم، فكان من اللازم أن سكان مكة تضرب أعناقهم، فكان في أهالي مكة المسلمون الذين أقاموا في مكة، ولم يتمكنوا من الهجرة إلى المدينة حتى الآن، يضربون أيضًا، فنهى الله تعالى المسلمين عن القتال، وأجبرهم على الصلح الذي كان لتربيتهم وإصلاح أحوالهم الباطنة، فإذا لم نطلع على خلفية هذا الصلح لا يمكن أن نعرف حقيقة هذا الصلح المبين، وكان صلح الحديبية أمرًا صعبًا لا يمكن للعرب أن يرضوا به في أي حال من الأحوال، فالمسلمون الذين قد اعتنقوا الإسلام كانت نشأتهم في بيئة الكفر والشرك، وعُجنت طينتهم به، وكانت طبائعهم مثل طبائع كفار قريش، لكنهم تجرعوا بهذه المناسبة كأس المرارة، رغم أنهم لا يتحملون أقل ضيم أمامهم، ولا يرضون بأي إهانة، وتتقاتل القبائل فيما بينهم على أمور تافهة، لكنهم لا يخضعون ولا يقبلون دنيئةً، وتزهق أنفسهم وتسيل دماؤهم، لكن لا يحملون حقارةً، وكانوا يقولون: إن الموت آت، فلماذا نخشى الموت؟

يشهد التاريخ الإسلامي أن أمثال هؤلاء الغلاظ الشداد من الناس قد غيروا طبائعهم لصالح الإسلام، لكن الواقع أن الطبيعة

تكون فطريةً، فلما قيل لهم أن يتصالحوا، وكانوا يقدرون على أن ينالوا الفتح ويهزموا الكفار، لم تقبل أذهانهم هذه الفكرة، وسألوا: لم نُعطي الدنيئة في ديننا؟ ولماذا نتصالح؟ ولماذا نخضع أمام الكفار؟ ولم نرض بأن نخضع أمام الأعداء، وقد بلغوا من إيمانهم مبلغًا أنهم رغم هذه التساؤلات لم يفعلوا شيئًا، وصبروا على ما واجهوا من المشاكل، فكان نتيجة ذلك أن كثيرًا من المسلمين المضطرين قد نجوا من القتل، وارتفع شأن الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

الهجرة والتوكل:

وليعلم أن الله تعالى قد رفع شأن أصحاب الكهف لأنهم هاجروا في سبيل الله تعالى، وأووا إلى الغار تنازلاً عن كل شيئ: الأهل والوطن والمال، فليس معنى إقامتهم في الغار أنهم سيرجعون من الغار إلى وطنهم، فإنهم قد قطعوا حياتهم من كل شيئ، وذلك لئلا يضيع إيمانهم، فأكرمهم الله تعالى جزاء هذه التضحية بأنهم ظلوا أحياءً إلى مدة طويلة، وضرب للناس مثالاً صادقًا أن الإيمان هكذا يأتي بثمار يانعة جنية.

والأمر الثاني أن أصحاب الكهف توكلوا على الله توكلاً كاملاً، إنهم لم يفكروا شيئًا في طعامهم وشرابهم في الغار، بل وكلوا كل شيئ إلى الله تعالى، واعتمدوا عليه للغاية، الواقع أن مثل هذا التوكل ليس بسهل، لأن الوسائل والأسباب لم تكن متوافرةً، ولا يُرجى عن نشوء أسباب تحصل بعد زمن، ففي هذه الأوضاع توكل أصحاب الكهف على الله تعالى، فهذا هو الإيمان

القوي بالله أن الإنسان لا يملك شيئًا من الإمكانيات والأسباب، لكن يثق بالله كل الثقة أن الله سيطعمه، وهو الرازق الحقيقي.

جزاء تضحيات أصحاب الكهف:

ونظرًا إلى هذه التضحيات الجسام جعل الله أصحاب الكهف نموذجًا إلى يوم القيامة وخلّد ذكرهم، ولا شك أن هذا جزاء أكبر من الله لهم أنه سجّل أسماءهم في الخالدين، والأمر الثاني هو أن الله أرجع أصحاب الكهف إلى بيوتهم مكرمين محترمين، وأيقظهم الله تعالى في زمن قد حدث فيه انقلاب جديد، وتأسست دولة المؤمنين الموحدين، فلو استيقظوا قبل ذلك لوقعوا في صراع شديد: ماذا يفعلون؟ وأين يذهبون؟ وكيف يأكلون؟ وكيف يقضون حياتهم؟ وتنشأ لهم مشاكل كثيرة، فأنامهم الله تعالى في هذه المدة.

إذا ذكر الله شيئًا في القرآن كان معناه أن يكون هذا الأمر نصب أعين الناس، وليكن أمام الناس مثال ونموذج للعمل به، لأن هذه الحوادث تتكرر في الحياة، فلا بد من النظر في القرآن الكريم في أمثال هذه المناسبات، ما هي توجيهات القرآن؟ ذكر الله تعالى قصة أصحاب الكهف وغيرها من القصص للعظة والاعتبار، وهذه القصص أمثلة لأهل الإيمان، وكيف ينزل نصر الله بهم.

أسلوب الدعوة إلى الله
وعاقبة المؤمنين والكافرين

﴿وَاتْلُ مَآ أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا. وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[1].

أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأن يتلو أمام الناس ما أوحي إليه من القرآن الكريم، ولم يقل هناك أن يبلِّغه، بل يتلوه، معناه أن يقرأ عليهم ما أوحي إليه من القرآن مرارًا وتكرارًا، ثم قال: لا مبدِّل لكلماته، ليس معناه أن كلمات الله للحال فقط، ولا حاجة إليها في المستقبل، بل إن كلمات الله لا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة، وهي درس وعبرة لنا، ولن يجد الإنسان سواه ملجًا لنفسه، فإن هذه البيوت والمنازل الدنيوية التي يأوي إليها الإنسان كلها موقتة وضعيفة وضئيلة، وقد خلق الله جميع وسائل الدنيا، وكل ما يوجد من وسائل وطرق لوقاية النفوس وصيانتها خلقها الله تعالى، وليس معناه

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ٢٧–٢٨.

كذلك أنها خُلقت من غير خالق، سواء استعملناها أم لم نستعمل، بل الواقع أن الله خلقها، ونحن مكلَّفون لاستعمالها، مثال ذلك أن الأدوية والأدوات الأخرى التي خلقها الله تعالى، لم تُصنع بنفسها، فإن الشيئ الذي ينشأ بنفسه يكون له شأن آخر، وإذا صنعه رجل فكان له شأن، فإن الشيئ الذي خلقه الله تعالى يتصرف فيه كيفما شاء، ويسلب منه تأثيره وصلاحيته، فإنه ليس بنفسه، بل هو تابع لأمر الله، وخلقه الله تعالى، فإذا اعتمد عليه الإنسان كان اعتماده ضعيفًا، وعلى شفا جرف هار، وهذه حقيقة ناصعة أن الإنسان لا يجد من دون الله ملتحدًا[١].

مكانة فقراء الصحابة رضي الله عنهم[٢]:

كان نشر الإسلام وهداية الناس مما يهم ويشغل بال رسول الله صلى الله عليه وسلم دائمًا، فكان يتمنى أن صناديد كفار مكة إذا أسلموا وهم أغنياء وأثرياء مكة، أو أسلم واحد منهم أسلمت

---

[١] قال الإمام ابن كثير: عن مجاهد ملتحدًا قال: ملجأ، وعن قتادة: وليًا ولا مولى، وقال ابن جرير: يقول الله: إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحي إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله.

[٢] وهم بلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود – قال مسلم في صحيحه: عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال، ورجلان نسيت اسميهما، فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يشاء أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ٥٢].

معه قبيلته كلها، فكان هذا شغله الشاغل وهمه الوحيد، لينتشر الإسلام في الدنيا كلها، وبالنسبة إلى هذا ذكر الله تعالى في الآيات المذكورة أعلاه مخاطبًا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الكفار الذين يحملون قوةً وتأثيرًا في مجتمعاتهم، لا تتفكر في إسلامهم، إنهم ثوار وبُغاة على دين الله تعالى، وليست لهم قيمة عند الله، وإن كانت لهم جولة وصولة في الحياة الدنيا، وأنت تظن أن المؤمنين هم ضعاف الناس مقابل الكافرين، وأنهم آمنوا بأنفسهم، وليس لهم وزن في المجتمع، وأنهم يكونون معنا، فلا حاجة إلى التفكير في شأنهم، بل الحاجة إلى التفكير في الذين لهم مكانة في المجتمع، فلا بد لهم من الاعتناء بأمرهم، ليس الأمر كذلك، بل اصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وصاحِبهم، وأجبر نفسك على الجلوس معهم، ولا تنظر إلى أن صناديد مكة يسلمون، لكن بلّغ إليهم الدعوة إلى الله ما أمكن، وتكلم معهم حول الإيمان بالله ما تيسر، وقل لهم ما تريد أن تقول لهم، فالذين قدّر الله تعالى لهم أن يكونوا كافرين لا يمكنك أن تجعلهم مسلمين، إنما عليك البلاغ والمجاهدة في الدعوة إلى الله، أجهِد نفسك على التعايش مع فقراء الصحابة الذين يذكرون الله صباح مساء، ويمارسون عمل الدعوة والدين.

ولا تعد عيناك عنهم أي لا ينبغي أن تصرف عينك عنهم، بحيث تزدريهم، وتحتقرهم، فلا تعتبرهم محتقرين[1]، هؤلاء أرفع

---

[1] قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

شأن عند الله تعالى، والذين هم أكبر شأنًا في الدنيا أقل قيمة عند الله، فلا بد أن يكون موقفك أن تعتبرهم أرفع شأنًا، أما تقديم الدعوة إلى كفار مكة فلا تتغافل عنه، ولا تنظر إلى ما أعطيناهم من زهرة الحياة الدنيا، ولا شك أنهم أصحاب حول وطول في المجتمع، وهم أغنياء وأقوياء، يعقد بهم الرجل آمالاً، وأما ضعفاء القوم فلا يثق بهم الناس كثيرًا، نظرًا إلى هذا قال الله تعالى: ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ثم قال إشارةً إلى كبار القوم: ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، وليعلم أن القلب لا ينصرف إلا بإذن الله تعالى، ذلك أن الله فعال لما يريد، فنسب هذا الأمر إلى نفسه، أي من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا[1].

اللافت للنظر في هذه الآية أن كفار مكة كانوا يقولون: نحن نريد أن نحضر مجالسك، لكن يجلس معك ضعفاء القوم وأراذلهم، فكيف نجالسهم؟ أولاً اجعل هؤلاء الضعفاء بعيدين من مجلسك، وقد فكَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الواقع أن ساعة من الوقت إذا كان ضعفاء الصحابة بعيدين عنه فلا بأس بهم، وخلال هذه الوقفة يمكن إبلاغ الدعوة إلى صناديد قريش، فنهى القرآن الكريم عن هذا، وقال: إن هؤلاء الضعفاء هم خير

---

[1] أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه. كما قال: ﴿وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [سورة طه، الآية: ١٣١].

وأحسن لك، فلا تطع كلام كفار مكة الذين طبع الله على قلوبهم، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، فكلامهم لا يُعتبر صدقًا، ثم قال الله تعالى: هؤلاء هم الذين اتبعوا هواهم، وهم يكفرون بالدين، فكان أمرهم كسلاً وضلالاً عن الحق الذي أنزل إليهم، رغم أنه واضح وضوح النهار، فقل يا محمد لهم بكل صراحة: الحق من ربك، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر، لا يضر ذلك الله شيئًا، وهو غني حميد.

عاقبة المؤمنين والكافرين:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا[1] وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً. أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[2].

ذكر الله تعالى في هذه الآية أن الظالمين قد أعد الله لهم جهنم، أحاط بهم أسوار، كأنها دائرة مدورة، أحدقوا بها، وإذا احتاجوا إلى الماء والطعام واستغاثوا له، فيوفر لهم ماء حميم أو زيت

---

[1] السرادق: سور جهنم، وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لسُرادق النار أربعة جدر، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنةً، وقال ابن عباس: حائط من نار.

[2] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٢٩–٣١.

سخين[١]، يحرق وجوههم وحلقومهم، وهم في أسوء مكان، وأخبث شراب، هؤلاء وإن كانوا في الدنيا في أحسن حال، ويتوافر لهم كثير من الوسائل، لكن تكون حالتهم في جهنم سيئةً للغاية.

أما الذين آمنوا وعملوا عملاً صالحًا، فلن يضيع الله أجرهم، بل يوفي أعمالهم، وتكون لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ويزينون فيها بأساور من ذهب، كما يلبسون ثيابًا خضرًا من سندس واستبرق[٢]، ويتكئون فيها على الأرائك[٣]، ويقضون هناك حياةً هنيئةً مريئةً، نعم الثواب، وحسنت مرتفقًا (أي منزلاً ومقيلاً ومقامًا).

---

[١] وردت كلمة المهل في الآية: وهي الماء الغليظ مثل دردي الزيت، هذا قول ابن عباس، وقال مجاهد: هو كالدم والقيح، وقال عكرمة: هو الشيئ الذي انتهى حره، وقال آخرون: كل شيئ أذيب، وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهي سوداء، وأهلها سود، وقال ابن كثير: هذه الأقوال ليس شيئ منها ينفي الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار، ولهذا قال: يشوي الوجوه من حره. إذا أراد الكافر أن يشربه، وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه.

[٢] السندس: ثياب رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

[٣] الاتكاء: قيل: الاضطجاع، وقيل: التربع في الجلوس، وهو أشبه بالمراد هنا، والأرائك ج أريكة: السرير تحت الحجلة.

قصة صاحب الجنتين ومآل الجهود الإنسانية

خطأ الفكرة:

وكان من فضل الله تعالى أن أثمرت الجنتان كثيرًا، فقال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره عن عقاراته وجناته: أنا أكثر منك مالاً، وأعز نفرًا، وهؤلاء يتعاونون في جميع شئوني، وهم ماهرون، وأكثر قدرةً وموهبةً، وحينما دخل صاحب الجنتين الجنة فلا ينسب شيئًا إلى الله، وهو يعتدي على نفسه، وكان عليه أن يشكر الله تعالى، ويقول: الحمد لله على هذه الجنات والبساتين، وما شاء الله، ما أحسنها، وما أجملها، لكنه لم يقل مثل هذه الجمل، الواقع أنه كان يظلم نفسه، وإن كفران الله مرادف للاعتداء على النفس، وتكون مغبته وخيمةً، فدخل الرجل الجنة وهو يعتز بما له من مال ومتاع، وهو يقول: هذه جناتي، وإنني أرى أن هذه الكثرة الكاثرة من المال والمتاع لا تنتهي أبدًا، وتستمر إلى يوم القيامة، وكما أظن أن الساعة لا تقوم، فإذا كان النظام الدنيوي يستمر بكل قوة وفخفخة، فأنى تقوم الساعة، وإذا سلّمتُ أن القيامة تقوم، ورجعت إلى ربي لأجدن خيرًا منها منقلبًا.

موعظة صديق متدين:

وكان لصاحب الجنتين صديق متدين، لا يملك من المال إلا قليلاً، وكانت عنده جنة صغيرة، إنه قال له بعد ما سمع حوار صديقه: أكفرتَ بالذي خلقك من تراب، ثم من نطفة، ثم سوّاك رجلاً، ولو شاء الله لجعلك مخلوقًا آخر، وخلقك حيوانًا أرذل وأخس، لكنه خلقك من تراب، وجعل ذريتك تستمر بالنطفة، وحينما ولدت من بطن أمك، فكيف كان حالك؟، لكنك أصبحتَ إنسانًا رويدًا رويدًا، فاعرف مكانتك، وتُب إلى الله من جميع الذنوب والآثام، ثم أردف ذكر عقائده وأفكاره أنه يؤمن بالله، ولا يشرك معه أحدًا، فينسب كل شيئ إلى الله، ولا يؤمن بأن أحدًا يضره وينفعه سوى الله تعالى، وبعد ما ذكر هذا الصديق موقفه قال وهو يثير غيرة صاحبه: لولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله، لا قوة إلا بالله، فكان عليه أن يقول هذا، ويشكر الله تعالى على ما أعطاه من مال ومتاع.

ثم قارن بين موقفه وموقف صديقه أنك ترى أني أملك مالاً قليلاً، وليس لي عدد كثير من الأولاد والأتباع، ولا أستطيع أن أنجز عملاً عظيمًا، وليس لي مساعدون في هذا العمل، وأنا رجل فقير، لكن أؤمن بأن ربي قادر على أن يمنحني جنةً خيرًا من جنتك، فإنه على كل شيئ قدير، كذلك إن ما ترى من جنات وبساتين، إذا شاء ربي أرسل عليها حسبانًا من السماء، فتصبح صعيدًا زلقًا، فلا قيمة لقوتك ومالك وضيعتك، وكل شيئ هالك

إلا وجهه، فانسب كل شيئ إلى الله، ولا تغتر بقوتك وموهبتك، يمكن أن ينزل عليها طائف من الله، فيكون هشيمًا مكسورًا، أو أرضًا بلقعًا، أو يذهب ماء الأض غورًا، أو تجف البحار، الواقع أن الله إذا شاء جفف مياه الأرض، أو أتلف البساتين والحدائق بعواصف هوجاء، وأعاصير نكراء، فلا يدفعها الإنسان، ولا ينال شيئًا من قوته وموهبته، فاعرف هذه الحقيقة.

نزول العذاب:

حينما لم يتغير موقف صاحب الجنتين بعد نصيحة صديقه المتدين، فأرسل الله إليه طائفًا من السماء للاعتبار والاتعاظ منه في الدنيا، فأحيط بثمره، وتعرضت جناته للتلف والضياع، فلما رأى صاحب الجنة هذا المنظر المخزي بدأ يقلِّب كفيه على ما أنفق فيها (وقد استعمل القرآن الكريم بهذه المناسبة تعبير: يقلب كفيه) معناه أنه كان متحيرًا ومتحسرًا على ما فات، وجعل يقول: هاه هاه، قد ضاع كل ما أنفقته في جناتي هذه، وكانت جنته خاويةً على عروشها، وبعد ما رأى عاقبته هذه اضطر إلى أن يقول: يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا.

ما هو الشرك؟

الشرك هو السجود لغير الله تعالى، وعبادة الأصنام واعتقادها نافعةً وضارةً، لكن هذا الشرك هو في العبادة، وينخدع الإنسان من كلمة الشرك أنها تكون في العبادة فقط، لكن الحقيقة تقول: إن اعتقاد نفس أخرى مؤثرة في شيئ نوع من الشرك أيضًا،

فإشراك أحد في قدرة الله تعالى، واعتقاد أنه يملك قدرةً قليلةً أو كثيرةً مثل قدرة الله تعالى يُعد في الإشراك بالله.

وأحيانًا يكون الشرك في الأشياء المادية أيضًا، فمثلاً يقول الإنسان: إني دبرت أمرًا، فأنجح فيه، فلا بد للإنسان من فهم هذا الواقع أن التدبير إذا لم يوافق قدر الله تعالى فلا يكون الإنسان ناجحًا، وكذلك يقول الإنسان: إني أنفقت مالاً كثيرًا، وهو ينفعني، لكن هذا الإنفاق لا ينفعه إلا إذا أراد الله تعالى، فلا بد للإنسان أن يضع نصب أعينه مشيئة الله تعالى لا جهده وسعيه، فهناك أنواع كثيرة للإشراك بالله، وهي تعرف بالشرك الخفي، فإدراك الشرك الخفي والتغلب عليه ليس سهلاً، لأن الإنسان يعتبر التدابير مؤثرةً، وينسى هو أن الأصل في كل شيئ رضا الله، الذي لا يتم أمر بغيره.

الله هو الشافي:

كان خالي الأكبر الطبيب السيد عبد العلي الحسني (رئيس ندوة العلماء سابقًا) من كبار الأطباء الإخصائيين، وكان نقيًا تقيًا، مؤمنًا بالله كامل الإيمان، مرةً قص علينا قصةً عجيبةً أنه جاء إليه مريض من نوع جديد، فوصفت له دواءً بعد تفكير، فأكل المريض الدواء، فشُفي من مرضه، ثم جاء مريض آخر، هو يشكو نفس المرض الذي كان يشكوه المريض السابق، فخطر ببالي أن أصف له نفس الدواء الذي وصفته للمريض السابق، فأعطيت المريض نفس الدواء، لكنه لم يُشف، ثم قال خالي رحمه الله تعالى: حينما

وصفت الدواء للمريض الأول فاعتقدت أن الله تعالى إذا شاء، نفعه الدواء، لكن في المرة الثانية وثقت بالدواء، بحيث إنه نفع المريض الأول، فينفع المريض الثاني حقًا، لكن الله تعالى أثبت بقدرته أن ظنك خاطئ تمامًا، بل الله هو الشافي.

من الخطأ البين أننا نعتبر الوسائل أصلاً ومؤثرةً في معظم الأوقات، رغم أنه لا بد من الاعتناء بهذا الجانب أن كل ما يُرى في الظاهر ليس أصلاً، بل الفاعل المؤثر في كل شيئ هو الله تعالى، وهو يقدِّر الأمر، ولا تكون الوسائل نافعةً إلا إذا شاء الله، مثلاً أننا نأكل أحيانًا بالملعق، فإذا لا تُرى يد الإنسان فيظن الإنسان أن الملعق يوصل الطعام إلى الفم، رغم أن الملعق ليس هو الأصل، بل تختفي وراءه مشيئة الإنسان وإرادته، فإذا فقدت يد الإنسان فلا اعتبار للملعق.

التوكل على الله:

أخبر الله تعالى بقصة صاحب الجنتين بأن الإنسان إذا توكل على الله أفلح ونجح، وإذا اعتمد على مساعيه وجهوده، وعلى كل ما بذل من مال ومتاع، واعتمد كذلك على رجال العمل، فيخشى أن يخيب الله تعالى جميع البرامج والمخططات له، ويعاقبه في الدنيا، وهذا واقع ملموس أن الله لا يعاقب في الدنيا عاجلاً، لأنه جعل الدنيا دار الامتحان، فإذا عاقب في الحياة الدنيا فكيف تكون هذه الدار دار امتحان، ولأنه إذا عوقب رجل عقابًا شديدًا فيتنبه رجل آخر، ولا يخطئ خطًا مثله، فقد أخّر الله العقاب إلى يوم القيامة،

وجعل باب التوبة مفتوحًا قبل ذلك، فإذا تاب الإنسان من معاصيه وذنوبه تقبل الله توبته، وإلا يجد نكال أعماله في الآخرة، ويرى المجرم بأم عينيه كل ما عمل من جرائم في الدنيا، فيكون على يقين بأنه سيعاقب، وفقنا الله لما يحبه ويرضاه، وجعل إيماننا قويًا.

الرضا بالقضاء والعمل للآخرة:

ظن صاحب الجنتين أن جناته وجدت بمساعيه، وتحصل له منافعها في المستقبل كثيرًا، وكانت هاتان الفكرتان على خطأ، لأن الله جعل نظام الدنيا، وهو يرى من ظاهره أنه ينحصر في الوسائل، لكن الله أودع في الوسائل تأثيرًا، فهي توفِّر للإنسان طمأنينةً وسعادةً في الدنيا، وقد أمرنا الله تعالى باختيارها، ولم يأمرنا بترك الأسباب، وبالتواكل على الله تعالى، مرةً قال الصحابة رضي الله عنهم: يا رسول الله! بيِّن لنا ديننا كأنا خلقنا الساعة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ما منكم من أحد إلا قد كتب مقعده من الجنة، ومقعده من النار، قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، قال: اعملوا، فكل ميسر لما خلق له[1]، ومرةً قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: أرسل ناقتي وأتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[2]، فعُلم من هذا الحديث أنه ليس من المناسب أن يفك الراعي حبل الإبل، فتسرح في الأرض حيثما شاءت، بل عليه أن يقيدها ويعقلها، وكلمة عقال تستعمل لشد رجلي الإبل، وهي مشتقة من

---

[1] صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي، رقم الحديث: ٦٩٠٣.

[2] سنن الترمذي: آخر أبواب صفة القيامة: ٢٧٠٧.

العقل، معناها الشد والعقد، وعقل الإنسان يمسك بوجوده فيسمي بالعقل، أما العقال التي تستعمل على الرأس لئلا تسقط الغترة اشتقت من عقل الإبل، وكان العرب يشدون رجلي الإبل بالعقال، وإذا فكوا الإبل عقدوا بها غترة الرأس، وقد انتهى زمن عقد الإبل، لكنه أصبح عقد العقال على الرؤوس موضةً حضاريةً.

أمرنا الله تعالى في كل حال بأن نختار الوسائل المادية، لكن لا نعتمد عليها، بل نعتمد على الله تعالى، لأن الوسائل هي الوسائل، ولا يسري فيها التأثير والقوة إلا من الله، فالله قادر على أن يسلب من الوسائل فعاليتها وتأثيرها، أو يمنح الإنسان أكثر من التدابير والوسائل.

فرق بين الإنسان والحيوان:

ضرب الله تعالى في القرآن الكريم أمثلةً تبين أن الله يكتشف بالوسائل أحيانًا أمورًا تساوي الآيات البينات، فأمر الناس باختيارها، وقدم لهم فوائدها، وأحيانًا سلب منها تأثيرها، فاختيار الوسائل في الدنيا من مميزات الإنسان، فلا يشاركه فيها حيوان، لأن الحيوان لا يمكن أن يكتشف أو يشير على أحد، أو لا يعيش كما يعيش الإنسان، بل كما خلقه الله يستمر في عمله، فهو مخلوق مسير، وهذا هو تسبيحه، وهو يعد من عبادة الله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

إن ما أمر الله به الإنسان من اختيار الوسائل، فهو لبيان أن

---

[1] القرآن الكريم، سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

الوسائل خلقها الله، وهي التي ننجز بها أعمالنا، فأحيانًا نستعمل بعض الأشياء كثيرًا حسب حاجياتنا، وأخرى نستعمل بعضها قليلاً، مثلاً نأكل الطعام بمقدار أوفر للشبع وإزالة الجوع، وفي مقابل ذلك نتناول الدواء بمقدار قليل، لأن الله وضع تأثيرًا كثيرًا في مقداره القليل، فالدواء لا يملك تأثيرًا في نفسه، فلا بد أن يؤمن كل إنسان بأن التأثير الذي أودع الله في الأشياء هو من صنع الله تعالى، وليس فيه تدخل لأحد من البشر.

حدود اختيار الوسائل:

توجد في السيرة النبوية أمثلة لاختيار الوسائل وترك الأسباب ومنافعها ومضارها، وفي غزوة أحد عيَّن رسول الله صلى الله عليه وسلم نفرًا من الصحابة رضي الله عنهم، وكان هذا النفر يراقب على أن لا يهجم الأعداء من وراء الجبل، لكن لما انتصر المسلمون على الكفار، وبدأ الكفار يولون منهزمين، وتبعهم المسلمون، عمل جمع الغنائم، ففكر هؤلاء النفر أنهم عينوا في هذه الجبهة لئلا يأتي الأعداء من وراء الجبل، وإنهم قد ولوا مدبرين منهزمين، فلا حاجة إلى البقاء هنا، فننضم إلى المسلمين، وهنا تجمع الغنائم، فنشاركهم فيها، فذكرهم أميرهم، وقال لهم: لا بد لنا من البقاء هنا إلى نهاية الغزوة، لكن أعضاء النفر لم يرضوا به، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة، وذهبوا إلى جمع الغنائم، فانتهز الكفار هذه الفرصة، وكروا كرةً من وراء الجبل، وكان الهجوم شديدًا من الأمام ومن

الخلف، فانهزم المسلمون في ظاهر الأمر، واضطروا إلى الفرار رغم نجاحهم في أول وهلة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيدًا، ولم يسلم هو أيضًا من أذى المشركين، وأصابته الحجارة، وكسرت رباعيته، ووقع لشقه في حفرة، فاستشهد عدد من الصحابة رضي الله عنهم، فكان هذا خسارةً وقعت للمسلمين نظرًا إلى ترك الجبهة التي عين فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين رجلاً من الصحابة رضي الله عنهم، وقد نبه الله المسلمين على هذا الخطأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ. إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَآ أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

كذلك أخبرنا الله تعالى في غزوة حنين بأن الاعتماد على الوسائل لا يُجدي نفعًا، وكان عدد المسلمين في الغزوة كثيرًا، وفي مقابلهم كان الكفار قليلاً، فظن المسلمون أننا لن نُغلب اليوم من قلة، لكن الله قلَّب النتائج، وانهزم المسلمون، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ

---

[1] القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآيتان: ١٥٢–١٥٣.

ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[1]، فكانت غزوة أحد مثالاً لترك الوسائل، وكانت غزوة حنين مثالاً للاعتماد الزائد على الوسائل.

فلابد للمسلمين أن يعتقدوا أن التدابير نوع من الوسائل التي خلقها الله تعالى، وأمرنا باختيارها، فهي تعمل عملها، لكن يمكن أنها تخفق أحيانًا، فإذا كانت هناك عقيدة غير ذلك عادت النتائج غير مرجوة، إلا أن الله قد أمهل الكافر في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب، فإنه يوفر للكافر وسائل الترف والبذخ كثيرًا، ليتنعموا بها في الحياة الدنيا، ويتمتعوا بزخارفها، ويلبسوا ويأكلوا ما يشاؤون، لكن المسلمين إذا عاشوا مثل الكافرين نزل عليهم العذاب الأدنى، لأنهم يدعون بالإيمان بالله، ويعتقدون الله قادرًا مطلقًا على كل شيئ، ثم يخالفون أوامره ونواهيه.

خطأ صاحب الجنتين:

ظن صاحب الجنتين أن ما اختاره من حكمة وتدبير في زروعه وبساتينه هو ثمرة جهوده ومساعيه، وما حصل له من نعم وملذات، كان من حنكته وتجربته، فنهاه صاحبه عنه، لكنه لم يعبأ بنهيه، وبما أن صاحب الجنتين كان مسلمًا، وكان يخطئ في معرفة الوسائل وإدراك الحقائق، فكشف الله عنه غطاء عينيه أنه يمكن أن يزرع زرعًا، ويسقي ماءً، أو يستأجر أجراء، لكنه لا يدفع عنه العواصف والآفات السماوية، فإن الله يملك لها قدرةً كاملةً، ولم يعط الإنسان فيها أقل اختيار، مثل: نزول المطر،

---

[1] القرآن الكريم، سورة التوبة، الآية: ٢٥.

ووقوع الحوادث، وهبوب الرياح، فلا يمكن لإنسان أن يفعل شيئًا في هذا المجال.

فرق بين قدرة الله واختيار الإنسان:

إن ما خيَّره الله الإنسان له نطاق محدود، وهو مخير في نطاقه، وليس له قدرة في كل شيئ، فلا اختيار له في الفصول والطقوس، وكذلك كثير من الأشياء لم يجعل الله الإنسان فيها مخيرًا، وكما يقول مشايخنا الكبار: لا تقولوا: مُطرنا بسبب الفصول، بل قولوا: أنزل الله المطر، وثبت هذا من السنة النبوية كذلك، فإن الله يرسل الرياح فتثير سحابًا، ويذهب الملائكة بها، فتمطر من السماء أمطار غزيرة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[1] وقال في موضع آخر: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًى بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

فإذا نزلت الأمطار على أرض فلا يكون نزولها صُدفةً من السحاب، بل تُرسل من الله تعالى، فتمطر، وقد جعل الله نظامها في الظاهر بحيث تخفى هذه الأشياء، وإلا كان امتحان طاعة الإنسان وعصيانه صعبًا، فالامتحان يكون في حالة، وقع فيها

---

[1] القرآن الكريم، سورة الروم، الآية: ٤٨.

[2] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية: ٥٧.

الإنسان بين أمرين، هل يدير هذا العالم قوة خافية أو يسير هذا النظام بالوسائل الظاهرة، فإذا رأينا نار جهنم بأعيننا اقشعرت جلودنا، واشمأزت آثار وجوهنا، ولا نجترئ على شيئ ضد قدرة الله تعالى، فلا يكون في هذه الحالة امتحان واختبار، ويستمر امتحاننا إذا كان بعض أمورنا خفيًا عن أعيننا، ونعتقد أن كل ما أخبرنا به النبي صلى الله عليه وسلم حق، فالإيمان بالله، والإيمان بالرسل والإيمان بالملائكة والإيمان بكتب الله، والإيمان بالقدر خيره وشره والإيمان بالآخرة من أساسيات إيماننا، وهو أن نؤمن بهذه الأصول من القلب.

الحياة الدنيا ومشاهد القيامة

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[1].

ذكر الله تعالى في هذه الآية أن مثال الحياة الدنيا كالماء، تغيمت السماء، فأمطرت، وقد أنزله الله من السحاب، ولم يقل الله أن المطر نزل بنفسه، بل قال: أنزلناه من السماء، فالماء الذي ينزل من السماء وضع الله له منافع كثيرةً، منها أن الأرض تحمل قوة النبات بالماء، فما أودع الله في الأرض من خيرات، حينما يصل إليها الماء تنكشف هذه الخيرات، فتتكثف في موضع، أعشاب، وتنبت في موضع، أشجار، وأحيانًا تتحول هذه الأرض إلى حقول ومزارع، ولم يأت ذلك إلا بالماء الذي خالط خيرات الأرض، فصارت الأرض مخضرةً، وأحيانًا يُرى أن الأرض الخضراء تجف وتيبس في أقصر مدة، الواقع أن الماء إذا لم يصل إلى الأرض في حرارة الشمس، فتكون الأرض جافةً، وتكون المزارع هشيمًا تذروه الرياح، ولا يبق لها عين ولا أثر، ذكر الله في هذه الآية أيضًا أنه

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٤٥.

قادر على كل شيئ، إذا شاء غيّره، وإذا شاء تركه على حاله.

مثال بليغ في القرآن الكريم:

ذُكرت حقيقة الدنيا بمثال بليغ في هذه الآية، وهذه حقيقة الدنيا أنها ليس لها بقاء ولا دوام، فإنها تعمر وتفنى، وتخضر وتبيد، فإنها وإن تزينت وتزركشت، وظهرت في ألوان رائعة، ومظاهر جميلة، لكن زوالها حتم لازم، فإذا استعرضنا التاريخ الإنساني عرفنا أنه كما يكون للإنسان عمر، ومدة للبقاء في هذه الدنيا، كذلك تكون أعمار الحكومات والحضارات، فكل شيئ في الكون يحمل عمرًا، فبعض الأشياء يحمل مئآت من السنوات، وبعضها يكون عمره خمسين سنةً، كذلك تكون أعمار الدودات لأيام وأسابيع، لكن أعمار الأمم والشعوب تكون مختلفةً، فدراسة التاريخ الإنساني تكشف لنا هذه الحقيقة أن الأمم التي نحن نعرفها لم يكن لها وجود من قبل، لكنها تطورت وازدهرت ووصلت إلى مكانة مرموقة، ثم أصيبت بالانحطاط ومحت آثارها من الأرض، وكم من ملل ونحل نالت شهرةً فائقةً، وفاقت حضارات العالم، ثم اندثرت، لأنه ليس لأي شيئ دوام في هذه الدنيا، فكل شيئ يصير إلى ذهاب، فكل ما يُمحى من صفحة الوجود ليس من المعقول أن يعتمد عليه الإنسان، ويثق به، ويعتبره شيئًا مهمًا لنفسه، فلا بد من الاعتناء والالتزام بالشيئ الذي يبقى ويدوم.

مفخرة للإنسان في الدنيا:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ

عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[١].

الزينة ما أعجب به الإنسان، وكان جميلاً، ويمكن أن تعبر الزينة عن النعمة أيضًا، ويفتخر الإنسان بما عنده من مال ومتاع، ويتضمن المال كل شيئ من المسكن والطعام والشراب، وما تهواه نفس الإنسان، وبجنب المال والثروة يكون الأولاد أيضًا من زينة الحياة الدنيا، فالإنسان يفتتن بهذه اللذات الدنيوية، كيف يقضي حياة بذخ وترف، بحيث يكون مسكنه حسنًا، ولباسه حسنًا، ويكون له أولاد، وكان أمر الأولاد بوجه أخص مهمًا بأن الإنسان في قديم الزمان حينما لم تكن له كثرة الأسلحة، وكانت الحروب ميدانيةً، فكانت الحاجة إلى أولاد وأفراد، وتتوقف الحروب على الأفراد، فإذا كان عند رجل أفراد اعتبر قويًا، ويعرف أنه يملك عددًا كبيرًا من الناس للدفاع عن نفسه، وصيانة قومه، وهم يدافعون عنه، فإذا لم يكن عنده أولاد فكيف يدافع عن نفسه، فكانت للأولاد أهمية كبرى في ذلك الزمن، فالإنسان يكون محفوظًا بأولاده، ويكونون قرة عين له، ومبعث طمأنينة وراحة قلبية، هذا هو السبب فيما إذا كان المال والبنون اللذان يتمتع بهما الإنسان في ذلك الزمان، يُعتبران من نعم الدنيا، وكان الناس يرتعون فيهما.

أشياء ثابتة:

وردت في الآية المذكورة أعلاه عن هذه الأمور أنها فانية، وأما الأشياء التي تبقى، ولا تبقى في هذه الحياة الدنيا فقط، بل ترافق

---

[١] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٤٦.

الإنسان إلى الآخرة فهي الأعمال الصالحة للإنسان، فالأعمال الصالحة هي خير عند ربك ثوابًا، وأحسن عملاً، والأعمال الصالحة خير، بحيث إن الإنسان يعلق منها آماله، ولا يعلق من أشياء الدنيا آماله، فإن أشياء الدنيا لا قيمة لها، ولا اعتبار، إنها اليوم باقية، وغدًا لا تبقى، فإذا علقنا آمالنا من شيئ، ثم خابت آمالنا كنا متأسفين، فليس من الكياسة أن يعلق الإنسان أمله من حطام الدنيا، بل الأشياء التي ترافق الإنسان إلى الآخرة، وتنفعه فيها، وتبقى معه، وتسايره هي الأعمال الصالحة، وهي خير أملاً.

مشاهد القيامة:

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا. وَعُرِضُواْ عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِدًا. وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[1].

ذكر الله في هذه الآيات مشاهد القيامة بحيث إن الله يُسيِّر الجبال كأنها تطير طيران الطيور، وتندثر صلابتها وقوتها، وتكون هباءً منثورًا، فلا تحمل قيمةً ولا وزنًا، كذلك الأرض التي نراها الآن تبدل غير الأرض، فلا يبقى فيها شيئ، ويجتمع الناس فيها،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٤٦–٤٩.

ولا يغادر الله أحدًا من الخلائق، ويرى الإنسان هنا أنه عاجز كل العجز، ولا يملك شيئًا، وإن أرضه جرداء قاحلة، فلا يجد فيها شيئًا، فيفكر في ذلك اليوم أنه أين يذهب؟ وماذا يفعل؟ ثم إنه يُعرض أمام الله صفًّا، ويأتي يوم القيامة إلى ربه فردًا.

يقول الله يوم القيامة: كما بدأنا أول خلق نعيده، أي كما كنتم صبيانًا، حفاةً عراةً غير مختونين، كذلك جئتم إلينا خروجًا من الأرض، فلا تملكون لباسًا، وقد زعمتم أنكم لا ترجعون إلينا، ولا نجعل لرجوعكم موعدًا أو أجلاً، فلا عودة بعد الموت، ولا رجعة بعد الوفاة، ولا حساب ولا كتاب، ولا بعث ولا حشر، ولا سؤال ولا جواب، ومعنى زعم بالعربية: فكرة حلم بها الإنسان، ولا تستند إلى دليل وحجة.

أعمال خارقة للعادة:

قد سجل الملائكة جميع حركاتنا وسكناتنا التي مارسناها في حياتنا، فتوضع هذه التسجيلات أمامنا يوم القيامة، لنقرأها بأنفسنا، ونعرف ماذا عملنا في الدنيا، فلا حاجة في ذلك اليوم إلى التكلم بأتفه شيئ، بل ينظر الإنسان كل شيئ، ويوضع أمامه كل دقيق وجليل، وصغير وكبير، فكان المجرمون خائفين مذعورين في ذلك اليوم، مما عملوا في الحياة الدنيا، فإذا جاء كتابهم عرفوا كل ما فعلوا، ويكونون حيارى، وهم قائمون بين يدي الله، ويحاسبهم الله تعالى، ثم يقال لهم: لاحظوا أعمالكم، وانتظروا ماذا يكون مصيركم؟، فيقول المجرمون: يا ويلتى! يا حسرتى! ما

لهذا الكتاب، لا يغادر صغيرةً، ولا كبيرةً إلا أحصاها، فإنه سجل كل شيئ، ولم يترك أمرًا ما، فكيف نعتذر، وماذا نفعل؟ وذكرت الآية أن كل ما عمل الإنسان من عمل في الدنيا وجده حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا، ويكفي هذا التسجيل لإهلاك الإنسان، فلا حاجة إلى دليل آخر في معاقبة الإنسان، بل يقرِّر هذا التسجيل عقاب الإنسان بنفسه.

تمادي إبليس:

﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1].

ذكر الله في هذه الآية أساس فساد الإنسان، وإحصائه في قائمة المجرمين أن هذا الأساس بدأ من الشيطان، وكان الشيطان من الجن، ففاق المخلوقات الأخرى، وحاز حظوةً عند الله، وكان يعيش في الجنة، لكن صدر منه خطأ، فاستكبر ولم يطع أمر الله، وقد قام بتأويل استكباره تأويلاً فاحشًا، فقال: أنا أكبر من آدم، لأني خُلقت من نار وخُلق آدم من طين، وهو أهون مني، فكيف أسجد له، لما أمر الله الملائكة بالسجود، فسجدوا، إلا إبليس، ذكر الله تعالى أنه كان من الجن، لئلا يتطرق شك إلى أنه كان من الملائكة، والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، وليست عندهم مادة للعصيان، وخلق الله الملائكة من النور، وهم مخلوق نوراني، فلا

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٠.

يصدر منهم سوى الخير، فكانت الحاجة إلى ذكر هذه النكتة أن إبليس كان من الجن، وإلا يستشكل أن الملائكة كلهم سجدوا، لكن إبليس لم يسجد، فذكر أنه كان من الجن، وامتنع عن السجود أمام ربه، كأنه قال أمام أمر ربه قولاً قذرًا، فلو كان مثل هذا الكلام أمام إنسان أو مخلوق آخر لكان الأمر مختلفًا عنه، لكنه قال أمام ربه فاستفظع الأمر.

توجيه إلى عامة الناس:

وبعد ما ذكر الله تعالى قصة إبليس خاطب الناس: هل أنتم جعلتموه قدوةً لأنفسكم، أي أنكم تعصون الله في الدنيا، وتستعملون نعم الله بكل حرية، وتنسبون إلى أنفسكم أن هذه النعم من مساعينا وجهودنا، هل تتبعون إبليس؟ فإذا اتبعتم إبليس فاعلموا أن مصيركم مثل مصير إبليس، أفتتخذونه وذريته أولياءً من دوني، اعلموا أنهم عدو لكم، وقرر إبليس منذ طرده من الجنة أنه يضلكم، رغم ذلك كله أنتم تتبعونه أو تمشون وراءه.

وأخيرًا ذكر الله تعالى أن من عمل سوءًا فقد اتخذ لنفسه بدلاً سيئًا، أي إنه ترك الله، واختار إبليس قرينًا له، بئس للظالمين بدلاً.

بين النظام الإنساني والنظام السماوي

﴿وَإِذَا قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُواْ إلا إبليس كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1].

استكبار إبليس:

ذكر الله تعالى في هذه الآية أن الإنسان كيف يكون سيئًا، ويُعد في عداد المجرمين، وقد نشأ هذا الفساد من الشيطان، وكان الشيطان من الجن، وقد نال حظوةً عند الله تعالى، وكان يسكن في الجنة، لكن صدر منه خطأ، بحيث إنه استكبر، ولم يعمل بما أمره الله به، ثم أوّل استكباره، فقال: أنا أكبر من آدم، لأني خُلقت من نار، وآدم خُلق من طين، والنار أرفع من الطين، فكيف نسجد لآدم؟

لما قال الله للملا ئكة: اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس، إنه كان من الجن، فلا يتطرق إلى أحد شك أنه كان ملكًا، والملك لا يعصي الله، وليس فيه قوة للعصيان، خلق الله الملائكة من نور، وهم مخلوق نوراني، فلا يصدر منهم إلا الخير، فلا بد من التنبيه هنا على أن الشيطان كان من الجن، وإلا يُستشكل أن الملائكة كلهم

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٠.

سجدوا، لكن إبليس المسمى بالملك لم يسجد، فقيل: إنه كان من الجن، فأبى السجود أمام الله، وكان إباؤه ذنبًا كبيرًا عند الله، ولو قال مثل هذا الكلام أمام إنسان عام أو مخلوق عادي، لكان الأمر مختلفًا، لكنه قال أمام ربه، فاشتدت شناعته وقبحه.

خطاب للناس:

خُوطب الناس في هذه الآية بعد ذكر الشيطان: هل اتخذتموه نموذجًا لأنفسكم، أي أنكم تعصون الله عز وجل في الدنيا، وتستعملون نعمه، وتنسبون إلى أنفسكم أن هذه النعم توافرت لكم بسعيكم وجهدكم، هل تريدون اتباع إبليس؟ فإذا اتبعتم إبليس كانت عاقبتكم مثل إبليس أيضًا، هل تتخذون إبليس وذريته أولياء من دوني، فإذا فعلتم ذلك فاعلموا أنه عدو لكم، وقد عزم إبليس على أنه يضلكم، وهو يعاديكم، لكنكم تطيعونه وتتبعون أمره، وقال في آخر الآية: الذين يعملون السيئات فقد اتخذوا لأنفسهم بدلاً سيئًا، فهم يطيعون إبليس بدل الله تعالى، فبئس لهم بدلاً.

فرق بين النظامين: السماوي والإنساني:

مما اشتهر به على ألسنة الناس أن الإنسان يقيس نظام الكون على الحياة الاجتماعية، فكما أن هناك تخطيطًا في الدنيا لصناعة نظام، ثم يسند ذلك التخطيط إلى العاملين في هذا المجال، ويقال لهم: اعملوا وفقًا لذلك، ويكون المبرمج فارغًا من هذا العمل، كذلك يظن الإنسان أن الله خلق كل شيئ، ثم فوض الأمر إلى الآخرين من المخلوقات، فهؤلاء الآلهة يسدون حوائجهم،

ويكشفون كربهم، وينفعونهم في حياتهم، فاعتقد الناس هذه المعتقدات بأنفسهم، هذا هو السبب أن الإنسان لا يذكر الله تعالى، وهو يتسكع في هذه الفكرة أنه كما يكون في الدنيا موظف من الدرجة المتواضعة يدير أمور الناس، ولا يحتاج الناس إلى موظف كبير لإنجاز أعمالهم، كذلك جعل الله تعالى لتسيير نظام العالم موظفين صغارًا، وهم يقومون بأعمال الله عوضًا عنه، فأصبح الله تعالى فارغًا من الأعمال، فلا حاجة إلى أن نذهب إلى الله، ونتصل به اتصالاً مباشرًا، وقد ذكر الله تعالى هذا الموضوع في كثير من الآيات أن ما تدعون من دون الله من أولياء لإكمال حوائجكم، وتعتقدون أن الله خلق الكون، ثم أسند إلى الآخرين هذا ظن خاطئ، وضلال محض.

من مزايا نظام الكون أن الله تعالى خلق الكون كله، وجعل أمره بيده، ولم يجعل بينه وبين الكون واسطةً، حتى الأنبياء، رغم أنهم أكبر شخصية، وكانوا على أرفع درجة، لكنهم لا يتوسطون بين الله والناس، وأمر الله الناس في الدعاء بالسؤال منه مباشرةً، ولا حاجة إلى وسائط، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

خطأ أهل البدعة:

إن الذين يرتكبون الشرك أو يبتلون بالبدع والخرافات

---

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

يتعرضون لهذا الخطأ، بحيث إنهم يتخذون واسطةً بينهم وبين الله، ويظنون أن فلانًا إذا أصبح وليًا، فكأنه مقرب إلى الله، فإذا تصرف في شيئ لم يرفضه الله، بل يكمل عمله، فإذا شاء هذا الولي نفع أحدًا، وإذا شاء ضرَّه، كأن هذه الفكرة قد رسخت في أذهان الناس أن هذا الولي نشأت فيه قوة خارقة للعادة من الله، فهم يزورون القبور، ويظنون أن الولي في قبره يحمل من الله قوةً خاصةً، فإنه يستطيع أن يكشف كرب الناس، وينفعهم، تدخل هذه الفكرة في الناس بسرعة، وتنتهي إلى الشرك، ومن مواضع الضعف في الإنسان أن أمثال هذه الأمور تحدث في ذهنه بسرعة، ولم يكن وراء ذلك إلا أن موظفين من المستوى الرفيع يكونون مخططين في النظام الإنساني، فلا يعمل ملك بنفسه شيئًا، بل يأمر، وينفذ إرادته، والوزاء الآخرون يعملون أعمالاً، ويكون تحت إشرافهم أمناء ومسئولون، فالناس لا يذهبون إلى الملك لإنجاز أعمالهم، بل يذهبون إلى هؤلاء الأمناء والوزراء، ويقدمون لهم هدايا وتحائف لإرضائهم، ليكملوا أعمالهم في أقصر وقت، فلا حاجة إلى إرضاء الملك، بل الحاجة كل الحاجة إلى إرضاء الوزراء والمسئولين، فالإنسان يطبق نظام العالم هذا على نظام الله تعالى، وينتهي الأمر إلى الشرك.

يرتكب الإنسان أولاً الشرك الخفي، ونعوذ بالله أن كثيرًا من الناس قد وقعوا في هذا الشرك، فإنهم يعتبرون الوسائل والأدوات مؤثرةً في إكمال أمورهم، وقد ورد في بعض الحديث: من قال:

مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، وكافر بالكوكب[١]، وقد نهى الحديث عن إبداء هذه الفكرة أن المطر نزل نظرًا إلى الفصول، الواقع أن الله تعالى ينزل المطر بفضله ومنه، لكن الكاهنين يقولون: إذا طلع نجم فلاني نزل المطر، فإنهم يعتبرون النجوم أصلاً في نزول المطر، وهذا هو الشرك أن يعتقد الإنسان الأشياء المادية مؤثرةً.

خطأ إبليس:

ذكر الله تعالى أن الشيطان يضل الناس، ولا قيمة للشيطان عند الله، وكان الشيطان من ذرية الجن، إنه أطاع الله قبل استكباره إطاعةً كاملةً، واتخذ طرقًا شتى لإرضائه، فرفع الله شأنه، فجعل يرافق الملائكة، كأنه منهم، ومعلوم أن رفاق الإنسان يُعدون منه، فكان إبليس مثل الملائكة، رغم أنه ليس ملكًا، وكانت فطرته تختلف من فطرتهم، فعصى أمر الله تعالى، فلم يكن عصيانه في رفض السجود لآدم عليه السلام فقط، بل قام بتأويل أمره، أي جادل الله، لما سأله الله: لماذا لم تسجد؟ فإن كان يشعر بخطأه وتقصيره استدرك ما صدر منه خطأ، وقال: قد نسيت، أو قال: إني ظننت أني لست بمخاطب لهذه السجدة، فلو قال مثل هذا الكلام لكان الأمر بالعكس، لكنه بدأ يجادل الله: إنه أكبر من آدم، فكيف يسجد لآدم؟ فلماذا جادل الله، فلم

---

[١] صحيح البخاري، كتاب الأذان باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم: ٨٤٦.

يكن جديرًا بأن يعيش بين الملائكة في الملأ الأعلى، وقد سُمح له بالذهاب والإقامة فيه، وكان فضل الله عليه أنه أذن له بالإقامة مع الملائكة، فكان يقيم معهم، ويرافقهم، وتحصل لهم فوائد ما تحصل للملائكة، لكنه أساء إلى نفسه باستكباره، ولم ينسب هذه الإساءة إلى نفسه، بل قال: أغواني الله تعالى، فنغوي ونضل جميع الناس، وقد أصبت بهذه البلية من عدم السجود لآدم، فلا أترك أبناءه آمنين مطمئنين، بل أضلنهم وأغوينهم إلى جهنم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ. قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

غاية خلق الإنسان:

خلق الله الإنسان بشرًا مكلفًا، وهو يريد أن يكرمه بجنات النعيم على أداء وظيفة العبودية بأحسن طريق، فالذين يؤدون هذه الوظيفة بكل أمانة ودقة يدخلون الجنة، لكن الذين لا يفكرون في غاية خلقهم، ولا يستعملون عقولهم، فلهم آذان لا يسمعون بها الحق، ولهم قلوب لا يفقهون بها، ولا يتوصلون إلى الحقيقة، بل يعتمدون على الوسائل، ويظنون أنها هي المؤثرة في أعمالهم، فلا تتم أعمالهم بدونها، وإذا قيل لهم: اطلبوا كل شيئ من الله

---

[1] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيات: ١٦–١٨.

مباشرةً، قالوا: كيف يمكن أن نتوصل إلى الله بدون واسطة، وهو على العرش، فلا نصل إليه، وقد أمرهم الله تعالى أن يتصلوا به اتصالاً مباشرًا، ولا يعتبروا الوسائل أصلاً، ثم لا يحتاجون بعد ذلك إلى أي شيئ آخر، يجب على الإنسان أن يؤمن بالله إيمانًا كاملاً، ويسأل الله كل شيئ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ. وَللَّهِ الأَسْمَآءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيَ أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

[1] القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٩–١٨٠.

الآلهة الكاذبة وعاقبة الكفار

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا. وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾[1].

قال الله تعالى، وهو يخاطب المشركين: ما كان هؤلاء الشركاء حاضرين حينما يخلق الله السماوات والأرض، ولو كانوا حاضرين لما أسند الله إليهم أمره، بل الواقع أن الله خلقهم أيضًا، فهل هؤلاء ينظرون حينما يخلقهم الله، أو رأوا خلق أنفسهم، فإنهم لم يكونوا شيئًا عند الله، ولا يحملون مكانةً عند الله من بعد، ثم قال: لا نتخذ المضلين منهم عضدًا، والعضد باللغة العربية: من عضد شأنه، وتستعمل هذه الكلمة للنصر والتائيد، لذلك قال: وما كنت متخذ المضلين عضدًا.

ثم يقول الله تعالى: إن الذين تعتقدونهم آلهةً وتستغيثون منهم، وتطلبون منهم منافع، لا قيمة لهم، فهل هؤلاء كانوا شاهدين زمن خلق العالم، وهل شاركوا أعمالنا، وهل كانوا

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٥١–٥٣.

يعرفون هذه الأمور، الحق أنهم ما كانوا موجودين، فكيف يمكن أن نستعملهم في إدارة العالم، وهل نجعلهم وسيلةً إلينا؟ وهل نحتاج إلى أن نوكل إليهم أمرنا؟ الحقيقة أننا لسنا في حاجة إليهم.

إن الله إذا أراد شيئًا قال: كن فيكون، فبمجرد مشيئته يأتي ذلك الشيئ إلى حيز الوجود، ولا يحتاج إلى ذريعة أو وسيلة، فليس بينه وبين العبد واسطة، فإن علمه ومشيئته يكفيان لوجود شيئ، فتكررت كلمة: " لا يعلم " في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِى الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1]، ليس معنى ذلك أن الله غير مطلع على شيئ، بل معنى عدم علم الله أنه ليس لذلك الشيئ وجود، لأن علم الله علامة وجود شيئ، ولا يمكن وجود شيئ بدون علم الله، فيبين الله تعالى أنهم يتكلمون بكلمات فارغة، ويدعون دعاوي كاذبة أن الله لا يعلم، فسبحان الله عما يشركون.

قدرة الله تعالى:

لا بد لنا من معرفة حقيقة علم الله تعالى، فإن ما نراه في هذا الكون هو نتيجة علم الله تعالى، ولو صح التعبير لقلنا: إن الله تخيل شيئًا، فتشكل وجوده، ووجود الشيئ مقرون بمجرد علم الله تعالى، فالله لا يحتاج إلى واسطة في إجراء أمر، ولا في تعيين موظف أو إداري في إنجاز شيئ، والملائكة عند الله مثل الشيئ الجامد، وإذا أراد الله تعالى أمرًا فيعمل الملائكة، ويطلعون على مشيئته، ويشتغلون

---

[1] القرآن الكريم، سورة يونس، الآية: ١٨.

بتنفيذها، فلا بد لنا من أن نستحضر أن هذا الكون الهائل الذي هو بين أيدينا يسير بعلم الله تعالى، ويعرف الملائكة علم الله تعالى، ثم يعملون وفقًا له، قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

عاقبة المضلين والمجرمين:

ذكر الله في الآية الثانية عاقبة المضلين: إذا كان يوم القيامة حضر الآلهة التي كان المشركون يعبدونها، أي الشخصيات العظام التي كانوا يعتبرونها مؤثرةً في الأعمال والأفعال، وقد سمعوا عنها: أنها صلحاء الأمة، فكانوا يعاملونهم معاملة الأصنام والأوثان، ويسألون منهم، ويستغيثونهم من دون الله، فكلا الطرفين يكونان حاضرين، هنالك يقول الله تعالى للمشركين: نادوا شركائي الذين زعمتم من دون الله، وعاملتم معهم مثل عبادة الله، واعتقدتم أنهم ينصرونكم، وأنهم يحملون قوةً خارقةً للعادة، فادعوهم اليوم، لينصروكم، وكنتم تتصورون في الدنيا أنهم مؤثرون في كل شيئ، فهذا اليوم هو يوم نصركم، فينادون شركاءهم: انصرونا، وساعدونا، وأنقذونا من هذا الموقف الحرج، فنحن أحوج إلى نصركم، كنا نسألكم في أمور الدنيا، ونقوم أمامكم بكل أدب واحترام، وندعو أدعيةً، فلا يلبي هؤلاء الشركاء على ندائهم، ولا يردون شيئًا، لأنهم يكونون في مصيبة تلو مصيبة: حساب، وعرض وقيام بين يدي الله تعالى، فلو كانوا في حالة النصر والمساعدة لما أمكن لهم تقديم النصر إليهم، لأنهم لا يزالون يعانون خطرًا أفدح في ذلك

---

[1] القرآن الكريم، سورة النحل، الآية: ٥٠.

اليوم، يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[1].

وذكر الله تعالى في الآية الثالثة أن المجرمين الذين عصوا الله في الدنيا يرون نار جهنم أمامهم مشتعلةً متوقدةً، ولا يجدون لهم مصرفًا، بل يردون إلى النار، ويعتقدون أنهم مواقعوها، فتتقدم إليهم النار، ولا سبيل لهم للفرار منها، فيدخلون فيها، وقد أخبر الله تعالى بأنهم لا يجدون مكانًا أو سبيلاً للخروج منها، ليجتنبوا النار، بل إن نار جهنم تحيطهم من جميع جوانبهم.

الواقع أن هذا المشهد يواجهه المجرمون، فليعتبر المشركون في الدنيا أي شيئ معبودًا ومسجودًا، وليختاروا أي رجل ناصرًا ومعينًا، ينصرهم في حوائجهم، وفي الحوائج التي ترتبط بالله تعالى، لكنهم حينما يذهبون إلى القبور ويسجدون أمام الأصنام، فيعتقدون أن هؤلاء الآلهة يكملون أعمال الله تعالى، أما أعمال الإنسان فإنهم ينجزونها بأنفسهم، والإنسان حسب اختياره يعمل كما وفقه الله تعالى، وحيثما ينتهي اختياره بحيث إن المرض مضن، وقد استعمل جميع الأدوية والعقاقير، وأنفق في ذلك جميع ما في وسعه، ولم يكتب له الشفاء، فإنه يلجأ إلى من هو أكبر منه، فأخبر الله تعالى في هذه الآية بأن المشركين بسفاهتهم وحمقهم يرتكبون من شرك الله ويشعرون في الآلهة الكاذبة به من تأثيرات، لكنهم يوم القيامة يكونون هم وآلهتهم أمام الله تعالى، وينادونهم، لكن لا يسمعون نداءهم، ولا يتكلمون شيئًا.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٢.

غاية أمثال القرآن:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَـذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[١].

ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه ضرب أمثلةً متنوعةً لموعظة الناس، واختار أساليب مختلفةً لترسخ في أذهانهم هذه الفكرة أن كل ما يقع في هذه الدنيا، يقع بإذن الله، فليس بينه وبين العالم واسطة، فإذا ما أرضيتم الله بأعمالكم تتعرضون يوم القيامة لنار جهنم، لكن طبيعة الإنسان أنه يجادل كثيرًا، ويسعى في تنفيذ رأيه في كل مناسبة، فإذا انتقده أحد دافع عن رأيه الخاطئ، ويحاول في إثبات كلامه الفج، لئلا يظن الناس أنه أحمق، فدفاع الإنسان عن خطأه جدال، وهو مفطور على الجدال، فهو يجادل، وإذا أخبر بشيئ، قام بتأويله، ودافع عن كلامه، لذلك ذكر الله تعالى أنه صرّف في هذا القرآن من كل مثل، ووفر وسائل لموعظته، لكن الإنسان عنيد، ومتماد في أمره، ولا يقبل الحق والصواب.

عائق في سبيل الهداية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾[٢].

كأن الله تعالى ضرب على الوتر الحساس، بهذه الآية القرآنية، ويقول: كأنهم لا يؤمنون بدون أي سبب، فقال: وما

---

[١] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٤.

[٢] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٥.

منع الناس أن يؤمنوا إذ جاء هم الهدى، رغم أنهم يفهمون الحق بكل وضوح، لكنهم لم يؤمنوا بالهدى والحق، ولم يستغفروا الله تعالى، فليس وراء هذا العمل إلا أنهم ينتظرون سنة الأولين، فكانت النتيجة أن الله جعل لكل قوم نظامًا وسنةً، جاءهم الرسول، فقام بالدعوة فيهم، لكنهم بدؤا يجادلون الرسول، فكان أمر الله أن نزل العذاب عليهم، فهل ينتظره أهل مكة؟ لماذا لا يؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الله تعالى أمثلةً تحقيقًا لهذا الغرض، فإنهم يسمعون القرآن الكريم، ويفهمونه، لكنهم رغم ذلك كله يريدون أن يأتي ما أتى الأمم السابقة، فليس على الله بمستنكر أن يعاملهم كما عامل الأمم الماضية، فإذا لم يؤمنوا، ولم يمتنعوا عن فعالهم، واختاروا نفس الأسلوب الذي اختارته الأمم الماضية، كان قدر الله عليهم بالعذاب، وقد ذكر الله هذا الأمر في القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا أنه عامل الأمم الماضية، وكيف نزل عليهم العذاب، وكيف قام أنبياؤهم بالدعوة إليهم، وكيف جادلوهم، وناقشوهم، وأخيرًا لم يستسلموا لله، فنزل عليهم العذاب، فلابد من التذكير بهذه المناسبة: هل هؤلاء المشركون يريدون نفس الأمر، وما الذي يمنعهم عن الإيمان، إلا أن يقال: إنهم ينتظرون مثل العذاب الإلهي الذي نزل على القرون الخالية، فيتعرضون مباشرةً لعذاب الله تعالى.

مهمة بعثة الأنبياء:

﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ

كَفَرُواْ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِى وَمَا أُنْذِرُواْ هُزُوًا﴾[١].

ذكر الله في هذه الآية مهمة بعثة الأنبياء والرسل عليهم السلام والصلاة أنه لا يرسل الأنبياء والرسل إلا ليبشروا المؤمنين الصالحين بالجنة، وينذروا الكافرين بالعاقبة الوخيمة، لكن هؤلاء الكافرين بدأوا يجادلون، ويناقشون، ويحاولون في خلط الحق بالباطل، ليدحضوا به الحق، فهؤلاء هم الذين يسخرون من آيات الله، ويتخذون بيناته وما أنذروا به هزوًا، وقد اختار الكفار هذا الموقف من قبل.

حال الظالمين وعاقبتهم:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذًا أَبَدًا﴾[٢].

ومعلوم لدى الجميع أنه من يكون أكثر ظلمًا من الذي ذُكر بآيات الله، ووُعظ بالحق والصواب؟ لكنه يرفض كل شيئ، ويعرض عنه، فإن أمرًا واحدًا من الله كان كافيًا، لكن الله اختار طرائق قددًا لموعظة الناس، فجعل الآيات القرآنية سهلةً ميسورةً، ليدرك عامة الناس معاني القرآن الكريم، وقد ضرب الله أمثلةً بسيطةً للناس ووعظهم بقوله: لا تذهبوا إلى الضلال، فإنه لا ناصر لكم إلا الله، وإن ما اتخذتم من دون الله آلهة تذهب بكم إلى الهلاك، وسيأتي اليوم الذي لا تملكون فيه شيئًا، لكن الكافرين بدأوا يجادلون،

---

[١] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٦.

[٢] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٧.

ويحاجون في الله، ويستهزءون بآياته، فقيل في هذه الآية: ومن أظلم من ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها، الواقع أن هؤلاء الكافرين قد نسوا أو تناسوا أعمالهم الخاطئة والمجرمة، بل كثيرًا من أعمال البغي والمعصية، ولا يدور بخلدهم أنهم كم يرتكبون من الذنوب شناعةً وفظاعةً، وقد نُهوا عن هذه المعاصي، لكنهم لا يمتنعون.

خطورة التمرد وعاقبته:

ونظرًا إلى تمرد الكفار وتماديهم في الضلال قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُواْ إِذًا أَبَدًا﴾[1]، فهؤلاء الكفار قد سدوا عقولهم، فجعل الله على قلوبهم أكنةً، وفي آذانهم وقرًا، فلا يمكنهم أن يسمعوا، فإذا لم تكن آذانهم صالحةً للسمع، فسددنا آذانهم، فلا يتأملون الحق، وقد اتضح هنا جليًا أن كل ما يقع في الكون يكون بأمر الله تعالى، فإن قول الله: إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً يعني أن هذا الأمر وقع بأمر من الله، لأنه حينما نشأ فيهم تمرد وعصيان وسوء أدب، بحيث جعلوا يسخرون، فقضينا أنهم ليسوا جديرين بالجنة، بل قلنا: كونوا في غوايتكم، فجعلنا على قلوبهم أغطيةً وستورًا، هكذا استحال لهم الإيمان بالله والاعتراف بنعمه، لأنهم كانوا يخوضون في الباطل، وهذه سنة الله تعالى أن الإنسان إذا صدر منه خطأ سهوًا غفر له، لكنه إذا جادل، واستكبر، وتمرد وعصى قضى الله له أنه يدخل النار.

وقال في آخر قطعة من الآية: إن تدعهم إلى الهدى فلن

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٧.

يهتدوا إذًا أبدًا، يخبر الله تعالى بعلمه أن أمر هؤلاء الكفار يصل إلى الهلاك والدمار، فإنهم يضلون بسوء أعمالهم، ويعاقبون عقابًا من عند الله، هذا ما كان في علم الله، فلا تنفعهم موعظة نبيهم ليلاً ونهارًا، ولا دعوتهم علنًا وجهارًا، فلا يؤمنون بالله تعالى.

الغفور الرحيم وحكمة نزول العذاب على الأمم:

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِ مَوْئِلاً﴾[1].

ذكر الله في هذه الآية أن رب العالمين هو الغفور الرحيم، فلو يؤاخذهم على سيئاتهم، وما ارتكبوا من ذنوبهم لأنزل عليهم العذاب عاجلاً، لكنه قضى لهم أجلاً، فليفعلوا ما شاء، ولا ينزل عليهم العذاب، وإذا جاء أجلهم فلا يجدون من دونه موئلاً.

أما قصة الأمم الماضية التي كانت في سالف الزمان أنها كلما عصت واعتدت على أوامر الله تعالى كثيرًا، فلم يعجل الله لهم العذاب، بل قرَّر لهم وقتًا لنزول العذاب عليهم، وإن الحكمة التي تختفي وراء تأجيل العذاب كما أظن أن يمتنع الناس عن معاصيهم، ويتوبوا إلى الله تعالى ويجدوا فرصةً لمراجعة أعمالهم، وقد وعد الله في بعض الأمم أنه سينزل العذاب عليهم، فلم يأتهم العذاب فورًا، بل نزل العذاب حسب مشيئة الله بعد أربعين سنةً، فالله سبحانه وتعالى يهمل الإنسان للتوبة والاستغفار، ويوفر له فرصًا، فإذا انتهت هذه المدة أخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٥٨.

قصة موسى والخضر عليهما السلام وما لها من دروس

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا. فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا. فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـذَا نَصَبًا﴾[1] إلى آخر القصة.

ذُكرت هنا القصة مباشرةً بدون ذكر خلفية قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام، فلم تكن الحاجة إلى ذكر تمهيد، وليس القرآن الكريم كتاب قصص وحكايات، دلت الآية على أن الله تعالى أمر سيدنا موسى عليه السلام بزيارة الخضر عليه السلام، الذي كان أعلم منه، فقال موسى عليه السلام لفتاه: لن أبرح الأرض حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبًا. وكان مجمع البحرين هو الملتقى الذي كتب الله فيه لقاء سيدنا موسى عليه السلام، تضاربت آراء المفسرين في كلمة مجمع البحرين، فقال بعضهم: هو ملتقى بحر سيناء وبحر إفريقيا، وقال بعضهم: هو موضع قرب دجلة والفرات، فالدراسات والتحقيقات متنوعة في هذا الأمر، ولم يذكره الله تعالى

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٦٠–٦٢.

موضعًا معينًا، وليست له علاقة خاصة بهذه القصة.

حوت سيدنا موسى عليه السلام:

لما بلغ سيدنا موسى عليه السلام مع فتاه مجمع البحرين نسي حوتهما، واتخذ الحوت في البحر سربًا، فإنه ذهب إلى البحر كما تطفو الحيتان فوق الماء، رغم أن هذا الحوت كا ن مقليًا، وصالحًا للأكل، لكنه أصبح حيًا، وعادت إليه الحياة، فدخل الماء، ولا شك أن هذا الأمر كان مستغربًا، وآية من آيات الله، وجعله الله ذريعةً لالتقاء هاتين الشخصيتين، فلما جاوزا الموضع الذي أشار إليه الله تعالى قال موسى عليه السلام لفتاه: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، فأتنا غداءنا، فتذكر الفتى أن الحوت الذي حمله للأكل قد اتخذ طريقًا إلى البحر، وكان ذهابه خارقًا للعادة، لكن الشيطان شغله، فنسي ذكر هذا الأمر، وردت في هذه القصة كلمة "نصب" للتعب والملل، وتستعمل النصب باللغة العربية للتعب الذي يحصل بعد إنجاز العمل.

الشيطان والنسيان:

نسب فتى موسى عليه السلام النسيان إلى الشيطان، فهناك ينشأ سؤال: هل يقدر الشيطان على إنساء شيئ، ورد في القرآن في مواضع كثيرة أن الشيطان يقدر على إنساء الإنسان وإلقائه في المصيبة، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا

[1] القرآن الكريم، سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

ادْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾[١]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[٢]، فجوابه أن كل شيئ مكروه ينسب إلى الشيطان، وقد خلق الله الشيطان في صورة الهواء أيضًا، فإنه يستطيع أن يكون صغيرًا أو كبيرًا، وهو يسري في جسم الإنسان، ويدخل في عقله ودماغه، وقد جعل الله هيكله، بحيث يدخل في الدماغ، فيشارك أفكاره، وينسيه أشياء كثيرةً، ويستولي على عقل الإنسان، وهو لا يشعر بأن الشيطان قد استولى عليه، وأحيانًا يأسر الشيطان ذهن الإنسان، بحيث يزيد فيه رغبة شيئ، أو يقدم له مشورةً بزيادة شيئ، وتكون مشورة الشيطان هذه بحيث لا ينظره الإنسان، ولا يشعر بأن قوةً خارجيةً تقوده أو ترشده، كذلك يكون أمر الله سبحانه مع عباده الصالحين أنه يبذر بذروًا صالحةً للأعمال الصالحة في قلوبهم.

عودة إلى الغاية:

لما علم سيدنا موسى عليه السلام أن الحوت قد ذهب إلى البحر، قال: ذلك ما كنا نبغ، وهذه هي غايتنا في السفر، فارتد موسى وفتاه على آثارهما قصصًا، ورجعا على الطريق الذي ذهبا منه، واستعملت هنا كلمة "قصصا" للرجوع إلى الوراء، معناها أنهما عادا على الجهة التي ذهبا منها.

وصل سيدنا موسى عليه السلام إلى غاية سفره، فوجد هنا

---

[١] القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية: ٤٢.

[٢] القرآن الكريم، سورة ص، الآية: ٤١.

عبدًا من عباد الله، آتاه من عنده رحمةً، وعلمه من لدنه علمًا، ذكر الله هنا أمرين مهمين: أولاً أن الله أودع في طبيعة العبد المشار إليه رحمةً، كلما رأى إنسانًا مصابًا بالأذى، سعى في تقديم الراحة له، وإذا كان صاحب حاجة قضى حاجته، ومن فطرة الإنسان أنه توجد فيه عاطفة الرحمة، والشفقة والمواساة، لكن الله أكرم الخضر عليه السلام بهذه العاطفة بوجه أخص، وثانيًا أنه أُكرم بالعلم اللدني، فكان يطلع بهذا العلم على أمور لا يعرفها الآخرون، فكان يعرف نظرًا إلى الأوضاع والظروف من هو يستحق بالمساعدة، ومن لا يستحق بها، فكلما اطلع على أمر سبق إليه، وقام به أحسن قيام، وقد أكرمه الله بموهبة خاصة في هذا الأمر، يقول بعض العلماء عنه: إنه نبي، ويقول بعضهم: إنه ليس بنبي، بل كان عبدًا من عباد الله المخلصين، كأنه نال مكانةً شبه مكانة النبوة، وكان يشعر على أساس مواهبه الخاصة بما يجري حوله من الحوادث والأمور، ويعرف عواقبها.

تلمذة سيدنا موسى عليه السلام على الخضر:

قال سيدنا موسى عليه السلام ملتمسًا من الخضر عليه السلام: أريد أن أتعلم منك شيئًا، وما أعطاك الله من الرشد أريد أن آخذ منك، قال الخضر عليه السلام: إنك لن تستطيع معي صبرًا، لأنه كان يعلم أن فكرة سيدنا موسى عليه السلام تختلف عنه تمامًا، وله أعمال ومسئوليات أخرى، فإنه يستغرب ويتعجب من كل أمر له، فقال له الخضر عليه السلام: إنك لن تستطيع معي

صبرًا، وأنا أعمل عملاً لا تعرفه أنت، ولا تعرف ما وراءه من الحكمة الإلهية، فتتعجب من هذا، وتنتقد كل أمر من أموري، فتكون مصاحبتي عسيرةً لك، أجاب موسى عليه السلام بكل إلحاح: ندعو الله تعالى أن نصبر على ذلك، ولا نعصي أمرك، سمع الخضر عليه السلام هذا الجواب، وقال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيئ حتى أحدث لك منه ذكرًا، فالحاجة فيه إلى الصبر الكثير، فلما رضي كلاهما، واتفقا ارتحلا وسافرا، ووقعت خلال ذلك ثلاث قصص عجيبة، ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم.

رحلة لطلب العلم:

أخبر الله سيدنا موسى عليه السلام بأن هناك عبدًا هو أكثر منك علمًا، فسأله موسى عليه السلام: ما هو العلم الذي لم يكرمه الله به، رغم أنه جعله نبيًا للناس، وهو يبلغهم العلم الذي أكرمه الله به، أي علم الآخرة، وعلم ابتغاء وجه الله، وعلم ما بعد الموت، فهذا العلم لا يناله الإنسان بفهمه وإدراكه، ولا يمكن أن يعرف الإنسان: ماذا يكون في القبر، وهل يبعث مرةً ثانيةً، وكيف يحاسب يوم القيامة؟ هذه أمور لا يعرفها الإنسان بنفسه، لأنه يعرف حاله المادي فقط بحيث أنه يموت وتتناثر أجزاؤه، وتأكله الدود، ولا يعرف سوى ذلك شيئًا، والله سبحانه وتعالى يعلم ماذا يكون في المستقبل، وقد أخبر بعضًا منها أنبياءه، فأخبر الأنبياء به عامة الناس، فأراد سيدنا موسى عليه السلام أن يعرف ما هو العلم الذي لم يكرمه الله عزوجل به، وأكرم به عباده

الآخرين، فسافر سيدنا موسى عليه السلام، ولقي الخضر عليه السلام، ورافقه في هذا السفر بعدة شروط.

محطة أولى في الرحلة:

لما بدأ كلاهما السفر واجههما في الطريق، البحر الذي كان لابد من عبوره بالسفينة، وكان الملاحون يذهبون بالناس من السفن، رآهما ملاح، فظن أنهما صالحان، وأركبهما بدون ثمن تطوعًا على سفينته، وكانت سفينة هذا الملاح حديثةً، وكان رجلاً مسكينًا، ولا تحصل له بُلغة العيش إلا بهذه السفينة، لكن الخضر عليه السلام لما ركب سفينته، كسر بعض ألواحها، ولم يكن هذا الكسر من باطن السفينة، وإلا كان خطرًا للإغراق، بل كان على طرف منها، وكان الكسر أنشأ تخلخلاً يسيرًا في بعض أجزائها، أو جعل السفينة معيبًا، يترشح منه الماء رويدًا رويدًا، فيجتمع في السفينة، فيكون سببًا لإغراقها، فأصبحت هذه السفينة فاسدةً، فلم يصبر موسى عليه السلام، وقال: لقد جئت شيئًا إمرًا، بحيث كسرتَ سفينة مسكين، فقال الخضر عليه السلام: هذا مما تخلف به وعدك، وقد وعدتني بالصبر والسكوت، فقال موسى عليه السلام، أجل، أعترف بتقصيري، فاعفني، ولا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسرًا.

محطة أخرى في الرحلة:

عبر موسى والخضر عليهما السلام البحر، وذهبا إلى موضع كان يلعب فيه الصبيان، فدعا الخضر عليه السلام صبيًا من هؤلاء

الصبيان، وخنق عنقه، حتى مات، يمكن أن الخضر عليه السلام قد ضغط عنقه ضغطًا لم يره أحد، ثم نشأ بعد قليل وجع في عنق الصبي، فطن الناس أنه كان أثرًا لهجوم وترد وسقوط، لكن كان تأثير ضغط العنق أن الصبي قد مات، فلم يصبر سيدنا موسى عليه السلام، وقال للخضر: أقتلت نفسًا زكيةً بغير نفس، ما هي جريمة هذا الصبي؟ لم يصدر منه خطأ، وكان يظهر عليه مخايل الصلاح والتقوى، هذا الإجرام يكرهه كل إنسان، قال الخضر عليه السلام: إنك وعدتني بأنك لا تتدخل في شأني شيئًا، لكنك لا تصبر، بل توجه إلي سؤالاً من دون تأخير، فإن لم تصبر معي فلن نسافر معًا، لأن عملي هذا يكون مبعث أذى لك، فلا حاجة إلى المصاحبة معًا، قال موسى عليه السلام: إن سألتك عن شيئ بعدها، فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذرًا.

محطة ثالثة في الرحلة:

أقام موسى والخضر عليهما أثناء الرحلة في قرية، وكانا مصابين بالتعب والنصب، وهما يشعران بالجوع أيضًا، لكن لم يطعمهما أهل القرية، وكان في قديم الزمان أنه إذا جاء ضيف في قرية فكان أهل القرية يعتبرون ضيافته من حقوقهم، وكانوا يسألون عن حاله، ويوفرون له الطعام والشراب، لكن موسى والخضر عليهما السلام نزلا في قرية لم يسأل أهلها عن الطعام والشراب، وكانا جائعين، وخلال هذه الإقامة رأى الخضر عليه السلام أن جدارًا يريد أن ينقض، وكان متمايلاً إلى الأرض، وكاد

أن يسقط، قام الخضر عليه السلام، وأعاد بناء الجدار من جديد، فتعجب موسى عليه السلام من هذا العمل، وقال للخضر عليه السلام: يا للعجب! إن أهل هذه القرية لم يسألونا عن الطعام والشراب، ولم يعاملوا معنا معاملةً حسنةً، لكنك تقيم لهم جدارًا، ولو كان هذا العمل لازمًا فلابد من أخذ الأجرة عليه، ﴿لَو شِئتَ لاتخَذتَ عَلَيه أَجرًا﴾[1]، فنشتري به الطعام، ونحن في حاجة إليه، ولو وجدنا أجرته لزالت مشكلات الرحلة، قال الخضر عليه السلام: لا تكلم، إنك لن تستطيع معي صبرًا، هذا فراق بيني وبينك، إنك لا تزال تخلف وعدك، لكني سأخبرك بتأويل القصص الثلاث التي لم تستطع عليه صبرًا.

سبب خرق السفينة:

قبل كل شيئ ذكر سيدنا الخضر عليه السلام عن السفينة أنها كانت لمساكين يعملون في البحر، وكانت ذريعةً لاقتصادهم وكسب معاشهم، فكانوا يكسبون بها نفقاتهم اليومية، وكان ملاح السفينة يذهب بالناس من ناحية إلى ناحية أخرى في البحر، ويأخذ منهم الأجرة، فخرقتُ في ناحية منها، وجعلتها ذات عيب، ذلك لأنه كان يسكن قريبًا منها ملك، يغصب سفنًا جديدةً لاستعمالها، ولعل هذه المناطق مناطق المياه، وكانت الحاجة فيها إلى سفن دائمًا، فإن الملك بدلاً من أن يشتري السفن، أو يكلِّف واحدًا لصناعة السفن، يأخذ سفن المساكين غصبًا، وبما أن هذه السفينة قد صُنعت

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٧٧.

حديثًا، وكان ربانها فقراء ومساكين، فشاء الله أن تسلم سفنهم من سيطرة الملك، فقال الخضر عليه السلام: إني خرقت هذه السفينة، لئلا يأخذها عُمال الملك، نظرًا إلى خرقها وفسادها.

بركة كسب الحلال:

إذا فكر إنسان في كسب الحلال رزقه الله بركةً وخيرًا، وأنشأ له أسباب حفظه وصيانته من الغيب، فالقصة المذكورة أعلاه مثال واضح له، فإن الله تعالى قد حفظ سفينة المساكين الذين يكسبون أقواتهم بجهد ومشقة، من سيطرة الملك الظالم، فرحمهم ونجاهم من هذه المصيبة، ولو سُلبت منهم السفينة لانتهت ذريعة اقتصادهم، واضطروا إلى اختيار ذريعة أخرى لكسب أموالهم، لكن الله هو الرزاق الحقيقي، وضع عنده حق منح الرزق، فهو يعطي الرزق، فأكرم هؤلاء المساكين بذريعة الرزق، وأنقذهم من المصائب، لكن العبد أحيانًا لا يعتقد فضل الله هذا، ويبتلى بهذا المرض أنه رُزق المال بجهده وسعيه.

إن غاية نزول سورة الكهف هي أن يعرف العبد معرفةً تامةً أن كل ما يقع في هذا الكون يقع بأمر من الله تعالى، لا بسعي الإنسان وجهده، ويتجلى من ظاهر أعمال الإنسان أنه هو الفاعل الحقيقي، هو الذي جعل نظام الدنيا مقصورًا على الذرائع، وتكون هذه الذرائع في الظاهر مؤثرةً، لكن الواقع أن جميع الذرائع تعمل بأمر من الله تعالى، وإذا كانت هناك ذريعة غير مؤثرة أنشأ الله تعالى ذريعةً أخرى من عنده، وكان من المتوقع بالنظر إلى

ظاهر الأمر أن السفينة تُغصب، بحيث يأتي عُمال الملك، ويعجبون بهذه السفينة، ويحملونها معهم، فتسلب ذريعة الاقتصاد لهؤلاء الملاحين المساكين، لكن الله يوفر الرزق، إنه لا ينزل الرزق من فوق السماء مباشرةً أو لا يلقيه في جيب شخص، بل يوفر الرزق بذريعة من الذرائع المادية، كما وفر الله لهؤلاء المساكين وسائل الاقتصاد، ولم يعطل لهم هذا النظام.

فليعلم من هذه القصة أن الله هو الذي يقدِّر ذريعةً لكسب الرزق، ثم يجعلها مؤثرةً أو معطلةً، لكن خطأ الإنسان أنه يعتبر هذه الذريعة من صناعة يده، ويتفكر أنه اخترعها من عند نفسه، فكسب بها المال، وليس فيه لأحد تدخل فيه، فاللافت للنظر أن نفكر في هذه الذريعة: من خلقها؟ ومن وضع فيها تأثيرًا وفائدةً؟ فإذا لم توجد هذه الذريعة فكيف يستفيد الإنسان منها؟ الواقع أن الذرائع كلها خلقها الله عز وجل، ويبقى فيها التأثير الذي أودعه، فالسكين الذي يحمل قوة القطع يكون ذريعةً للقطع والفصل، لكن الله تعالى إذا شاء سلب منه هذا التأثير، فاتضح منه أن جميع الذرائع خلقها الله تعالى، فإذا شاء أبقى فيها التأثير، وإذا شاء سلبها منها.

سبب قتل الغلام:

بعد ما عبر سيدنا الخضر عليه السلام البحر قتل غلامًا كان يلعب مع أترابه، فقال عن سبب قتله: إن أبويه كانا مؤمنين، يعملان كل عمل ابتغاءً لوجه الله تعالى، ويعيشان حياتهما طلبًا لمرضاته، ويجتنبان الذنوب والمعاصي، فكانت مشيئة الله تعالى أن يكونا في

حياتهما مطمئنين، ولا يكون هذا الغلام فتنةً لهما في المستقبل، وكان يخشى نظرًا إلى الذرائع الظاهرة أن هذا الغلام سيكون فريسةً للضلال، ويكون محرومًا من نعمة الإيمان، وكان ذلك ممكنًا، لأن أوضاع هذه المنطقة ستكون متأزمةً، فتتعرض لها الأجيال، وبما أن الإنسان يفسد من الصحبة الفاسدة، ويقبل أثر رفاقه وأصدقائه، ويصطبغ بصبغة بيئته وبلاده، فكان في علم الله تعالى أن هذا الولد سيكون في المستقبل مصابًا بالأمراض الفاسدة لقريته، ومتأثرًا بالأخلاق السيئة التي تكون فتنةً لوالديه، فقبل أن تأتي هذه المرحلة السيئة جنَّب الله الوالدين من الوقوع في الفتن، وحفظ إيمانهما رغم ما أمكن لهما نظرًا إلى الذرائع الظاهرة، وغيَّر الله نظامه جزاءً بأعمالهما الصالحة، فإنهما وإن كانا قد أصيبا بصدمة كبيرة من وفاة نجلهما البار، لكن الله أنسى رويدًا رويدًا حزنهما على الولد، ورزقهما ولدًا صالحًا، لأن الله تعالى إذا ألقى على عبد مؤمن مصيبةً، وهو صابر عليها، آتاه أجرًا مضاعفًا، وأسعده بالتقرب إليه.

تأثير الصحبة:

تحمل الصحبة قوةً كبيرةً، وهذه سنة الله في الأرض أن الإنسان يتأثر بصحبة أشخاص، يجلس معهم، فإذا كان هناك رفاق أشرار يفسد كثير من الأولاد بصحبتهم، وإذا كانوا صلحاء أتقياء يصلحون بتأثير صحبتهم وتقواهم، فالإنسان في هذه الدنيا يتعلم من إنسان آخر، فتنسجم له أحواله، ويسهل له العمل، لكن الجاهل يظن أنه يعمل حسب فهمه وفراسته.

سبب سقوط الجدار:

قال الخضر عليه السلام وهو يذكر حقيقة آخر قصة: إن الجدار الذي قام بإصلاحه كان لغلامين يتيمين، وكان تحته كنز لهما، وكان الغلامان لا يستطيعان أن يخرجا كنزهما لصغر سنهما، وإذا سقط الجدار فلا يحفظان كنزهما، فكانت النتيجة أن أهالي الحي يذهبون بجميع هذه الكنوز، وتلحق بالغلامين خسارة فادحة، لكن أباهما كان صالحًا، فجزاهما الله جزاء صلاحه وتقواه، وأرادت مشيئة الله تعالى أن هذين الغلامين إذا بلغ أشدهما ونشأت فيهما قوة التمييز بين الخير والشر فليستخرجا كنزهما، والظاهر أن الله عاملهما على أساس صلاح الوالد ورحمته، وهذا يدل على أن صلاح الإنسان ينتقل إلى أولاده، فتحصل لهم منافع وبركات.

كانت أموال الغلامين اليتيمين تحت الجدار، وهي تعرف بالكنز، ولم يكن في قديم الزمان نظام المصارف والبنوك، فكان الناس يدفنون أموالهم عامةً وقايةً لها من الضياع في مكان، إما في حقولهم أو في جزء من منازلهم، فإنهم كانوا يعرفون مواضع كنوزهم، أو من أخبروهم، ولا يطلع عليها آخرون.

غاية القصص الثلاث:

بعد ما ذكر سيدنا الخضر عليه السلام حقيقة هذه القصص الثلاث قال لسيدنا موسى عليه السلام: إن كل ما رأيته آنفًا ما فعلته من أمري، كنا في الظاهر نقوم بهذا العمل، لأن الله تعالى جعلنا ذريعةً ظاهرةً له، والله تعالى هو الفاعل الحقيقي وراءه،

فكل شيئ يصدر من جهته، لكنك ظننت أن مصدر هذه الأعمال أنا، فلم تستطع له صبرًا.

فقدم سيدنا الخضر عليه السلام بهذه القصة الفرق بين الذريعة وأمر الله، فلو واصلا رحلتهما إلى الأمام لظهرت عشرات من القصص خلال هذه الرحلة، وهي تدل دلالةً واضحةً على أن الله تعالى قادر على تغيير النظام القائم على أساس الذرائع، بأمره المحكم، وقال صلى الله عليه وسلم: يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما[1].

قدرة الله على تغيير النظام:

ذكر الله قصة موسى والخضر عليهما السلام على سبيل المثال، فلا يغتر واحد بعد ذلك بأن كل شيئ يتم بجهده، أو يتم بنفسه، بل الواقع أن كل شيئ يجري وفق سنة الله تعالى، وهو لم يتغافل للحظة عن مراقبته، فسنة الله خاضعة لله مائة في المائة، وإذا شاء الله غير في سنته، مثلاً: جعل الله النار ذريعةً للإحراق، فصفة الإحراق توجد في النار، فإذا طُرح رجل في النار نظرًا إلى سنة الله في الكون أحرقته النار، لكن لما طُرح فيها سيدنا إبراهيم عليه السلام غيَّر الله تعالى سنته، وسلب منها قوة الإحراق، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ. وَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ﴾[2]، فعلم منه أن النار ذريعة للإحراق، لكنها خاضعة

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام: ٦٣١٣.

[2] القرآن الكريم، سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٩–٧٠.

لأمر الله تعالى، فلا تؤثر في شيئ إلا إذا أمرها الله تعالى.

كذلك كل شخص يعلم نظرًا إلى نظام الذرائع الظاهر أن جسم الإنسان بعد موته بدأ يفسد وينشق، ويتعفن، لكن ما وقع مع سيدنا عزير عليه السلام كان عكس ذلك، إنه ظل مائة عام ميتًا، ولم يتأثر جسمه بشيئ، بل ظل طعامه وشرابه صالحين، لم يتسنها، رغم أن حماره قد انتفخ جسمه ولم يبق له عين ولا أثر، قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

هذه القصة تدل على أن صفات الأشياء من الله تعالى، وهو الذي أودع فيها خواص وميزات، فتعمل عملها، وتؤثر تأثيرها، لكن الله قادر على أن يسلب منها تأثيرها، متى شاء، وله أسباب ودواع، أحيانًا يسلب الله صفات بعض الأشياء منها لإبعاد الإنسان عن الخسارة، نظرًا إلى صلاحه وتقواه، وتارةً أخرى يغير نظام الذرائع الظاهر، مثال ذلك أن رجلاً إذا أحبه الله، ورضي بعمله الصالح جعل له الثواب في الدنيا مع ادخار ثوابه في الآخرة، وأزال عنه مصيبةً من المصائب، ووفَّر له صحةً وعافيةً كاملتين في الدنيا.

---

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.

المصائب: فرصة ذهبية لإصلاح النفوس:

وهناك نكتة أخرى أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فكان معناه أنه قد صدر منه خطأ أو معصية سببت له المصائب في الدنيا، وذلك ما أشار إليه الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾[1]، فالآية تخبر بأن المصائب الدنيوية تكون نتيجة سوء الأعمال، لكننا نعتقد أن وراء هذه المصائب سببًا خارجيًا، ولا نتفكر في أعمالنا، ولا نراجع أنفسنا، كذلك إذا حصلت لنا منافع دنيوية أو نعم إلهية ظننا أنها من ذكائنا وفطانتنا، وليس لأحد مشاركة فيها، رغم أن عقل الإنسان وحكمته لا يكونان مؤثرين إلا إذا شاء الله تعالى، وإلا يكون العقل متحيرًا رغم جميع المساعي المبذولة، وتكون التدابير ضائعةً.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الشورى، الآية: ٣٠.

قصة ذي القرنين وما يستفاد منها

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا. إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا. فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[1].

كانت في قديم الزمان ملوكية، فيكون الملك مستبدًا وجائرًا، وتحصل له جميع الخيارات للعزل والنصب، يفعل ما يشاء، وكان في مثل هذه العصور ملك يسمى ذا القرنين، إنه وضع نصب عينيه ابتغاء وجه الله أثناء تمكنه من سرير الدولة، واختار طرقًا ومناهج معتدلةً لتسيير نظامها، فخرج مدججًا بالأسلحة، مع عساكره وجنوده، وفتح البلدان والأقطار، ورد في القرآن الكريم أنه بلغ من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، مدوخًا نظام حكومته فيهما، ولما بلغ ذو القرنين مغرب الشمس، حيث كان الناس يسكنون، فخضعوا لذي القرنين، وانقادوا له، فخيَّر الله لذي القرنين: إما أن يختار منهج الملوك الفاتحين، فيعذب الناس، وينكلهم بأنواع من العذاب، وينهب منهم أموالهم، أو أن يتخذ منهم حسنًا، وهو تعامل الحب والمواساة مع الناس، هذا ما يرضاه الله تعالى، فقال ذو القرنين: أما من

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيات: ٨٣–٨٥.

ظلم فسوف نعذبه عذابًا نكرًا، وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسرًا، كأن ذا القرنين اعترف بأنه سيقيم دولةً مؤسسةً على الإيمان، ويختار موقفًا إيمانيًا، ويسعى في إصلاح الناس وتربيتهم، لكن إذا كان الناس لا يرغبون في الصلاح والإصلاح فنعاقبهم بالعقوبات الإسلامية.

ذو القرنين على مطلع الشمس:

بدأ ذوالقرنين يوسع حدود مملكته، ويتقدم شيئًا فشيئًا بعساكره، حتى مر بمناطق نائية في الشرق، حيث كان الناس يسكنون، وكانت الشمس تطلع عليهم، لم يجعل الله بينها وبينهم سترًا وحاجزًا، أي لا يملكون من اللباس ما يغطون به أجسامهم، ولا من المنازل التي يعيشون فيها، بل كانوا خلقًا من نوع جديد، يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾[1]، أي أن ذا القرنين عاملهم معاملةً يرضاها الله تعالى.

سد ذي القرنين ويأجوج ومأجوج:

تقدم ذو القرآنين إلى الأمام، فمرا بمكان كان يتقارب فيه سدان منيعان، فقد رأى هناك رجالاً لا يكادون يفقهون قول ذي القرنين، كأنهم قوم وحوش، وظلوا قلقين من صروف الزمان، فذكروا أمام ذي القرنين مشكلاتهم، وقالوا: يا ذا القرنين! إن يأجوج ومأجوج قوم أشرار، يعيثون في الأرض الفساد، فنحن نتعرض من قبلهم لمصايب تترى، وأنت ملك عظيم في العالم،

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٩١.

فهل لك أن تنقذنا من هذه المشاكل والابتلاءات، وإذا كانت نفقات ومصاريف للإنفاق في هذا الأمر وفّرنا لك، لأنك تحمل وسائل وأدوات، وأنت ملك من ملوك العالم، فأقم بيننا وبينهم سدًا نتخلص به من هذه المصيبة.

تدبير ذي القرنين الحكيم:

أخذ ذو القرنين طلب هذه المنطقة بكل جدية، وقال: إن ما أعطاني الله تعالى من الوسائل والأسباب، وما وفّر لي من طرق المساعدة هو خير لي، فأنصركم نصرًا مؤزرًا، فأعينوني بقوة، لا أجرة لي على هذا العمل، وإعانتكم بهذه المناسبة أن توفروا من أدوات إقامة السد مثل الحديد وغيره، حتى إذا ساوى بين الصدفين فيقام جدار بوضع صفائح الحديد، ثم تنفخ فيها النار، فتذوب هذه الصفائح، وتغلق جميع الأحجار المتخللة في الجدار، وتملأ بالمواد السائلة، ليكون الجدار محكمًا، فلا يكون في وسع يأجوج ومأجوج أن يتسوروا الجدار، أو ينقبوا فيه، فكيف يمكنهم نقب هذا الجدار الحديدي؟

نصيحة ذي القرنين:

حينما أعجب بهذا التدبير جميع سكان المنطقة قال ذوالقرنين: هذا رحمة من ربي منّ الله بها علي، وأنا أنجزه بتوفيقه وفضله، وبذلك تتوقف غارات يأجوج ومأجوج على سكان المنطقة، لكن الله قادر على كل شيئ، فإذا أراد أن يزيل هذا السد، الذي منع فتنة يأجوج ومأجوج من الخروج إلى الناس،

أزاله وهدمه من الأرض، ثم يخرج هؤلاء الوحوش ويفسدون في الأرض فسادًا، فيهلكهم الله تعالى، كما ورد في صحيح مسلم: يحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى، كموت نفس واحدة[١].

امتداد فتنة يأجوج ومأجوج:

كان يأجوج ومأجوج قومًا وحوشًا، يفسدون في الأرض، وينهبون أموال الناس، ولم يكن وراء ذكر قصة يأجوج ومأجوج في القرآن الكريم إلا أن الإنسان إذا وثق بنفسه، واعتمد على أمواله أفسد في الأرض، وأهلك الحرث والنسل، حتى يتقلب نظام العالم، وذلك حينما لا يعمل الإنسان بأحكام الله، ويؤثر متطلبات الدنيا، وقضاياها، لمصالحه الذاتية، وإذا لم يكن هناك خشية الله تعالى، فهناك أنشأ الله وسائل أسلحة تأتي بدمار شامل أحيانًا، مثل السلاح النووي الذي صنعه المثقفون يكفي لإهلاك الناس، هذا هو السلاح التي أطلق على هروشيما وناغاساكي فأهلك مآت الآلاف من الناس، في ثانية واحدة، ولم تكن جريمتهم إلا أنهم ما سمحوا المستعمرين بالاستيلاء على أراضيهم، وكانوا يدافعون عن وطنهم، فاستعمل هذا السلاح، وتحولت المدينتان إلى قاع صفصف، الواقع أن الناس أتوا بهذا

---

[١] مسلم، كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه: ٧٥٦٠.

الدمار الشامل بالوسائل التي منحهم الله تعالى، وعلى أساس الأسلحة التي توافرت من الله تعالى، فلم يمنحهم الله للإفساد في الأرض، بل منحهم للابتلاء والامتحان: من يكون صالحًا رغم نيل هذه القوة الخارقة للعادة، ومن ينخدع من الوسائل والأسباب مغرورًا بها، ويضر بالآخرين.

جوانب ذات عبرة:

في قصة يأجوج ومأجوج نموذجان لمعرفة الخير والشر، أكرم الله تعالى ذا القرنين بالمال والأسباب المادية فأنفق في جهات الخير، وأحسن إلى الناس، كما أعطى يأجوج ومأجوج قوةً ومناعةً بدنيةً، فأفسدوا بها في العالم، فاتضح منه أننا إذا أسأنا استعمال الوسائل المادية وتبجحنا بأسباب الدنيا، واستعملناها في إفسادها، ولا ننظر في ذلك إلى مرضاة الله تعالى، فكان ذلك اتباعًا لنظرية يأجوج ومأجوج، والحضارة الغربية أكبر نموذج لهذه الفكرة والمنهج، وهي تدفع الإنسانية إلى هوة من الهلاك والدمار، وأوضح دليل له غارات نووية على هيروشيما وناغاساكي، فقد أثبت بها أتباع الحضارة الغربية أن من لا يخضع أمامهم، ولا يستسلم أمرهم يغيرون عليهم، ويبيدونهم إبادةً كاملةً، فلا بد من استسلام أمرهم، والانقياد لهم، وإلا كانت عاقبتهم وخيمةً.

غرور الوسائل:

الواقع أن الاعتماد على الوسائل والأسباب إذا كان زايدًا

أصبح الإنسان مصابًا بالأنانية والغرور، وبدأ يدعي بألوهيته، واعتبر نفسه بمنزلة الإله الواحد، ثم تنشأ فيه فكرة أنه حر طليق ليس عليه تبعة أحد، ولا يحمل دين ولا شريعة في نظره قيمة ولا أهمية، فالأصل والأساس هو استغلال المنافع، من أي جهة حصلت، فالفكرة الأساسية لأوربا أو الحضارة الغربية هي نيل المنفعة العاجلة، ولا فرق في ذلك بين خير وشر، ولا نقاش في هذا أن ذلك الأساس يضر أحدًا أو ينفع آخر، وإن كان على حساب الإنسانية، فإذا كانت فيه مصالحنا ومنافعنا قمنا بهذا العمل على أتم وجه.

ربوبية الله تعالى والتركيز على الآخرة

عاقبة الكافرين:

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا. وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[١].

ذكر الله تعالى في هذه الآية أنه إذا نُفخ في الصور جمع الله جميع الخلائق، وأتى بالنار أمام الكافرين، وقيل لهم: هي مثواكم خالدين فيها أبدًا، فإن ما عملتم في الدنيا من عمل يعطى جزاؤه في صورة جهنم، فإن أعينكم كانت مطبقةً عن ذكر الله تعالى، فلا تنظرون إلى أحكام الله تعالى، ولا تسمعون كلامه، كأنكم حُرمتم صلاحية الأخذ والقبول، وقد ذُكِّرتم مرارًا وتكرارًا، لكنكم ما أطعتم، وما استسلمتم لأمر الله تعالى.

ربوبية الله تعالى:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً﴾[٢]، يقول الله في هذه الآية: هل

---

[١] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ٩٩–١٠١.

[٢] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٠٢.

اعتقد الكافرون العباد الذين خلقهم الله أولياء وآلهة، وهل يظنون أنهم يكملون حوائجهم، فليعرفوا أننا أعتدنا للكافرين جهنم نزلاً، هؤلاء هم الذين يكفرون بوحدانية الله تعالى وملكوته ونعمه، فإن مأواهم جهنم خالدين فيها أبدًا.

فالله سبحانه تعالى هو القادر والمتصرف في هذا الكون، وهو الذي خلق كل شيئ، فهو يسير حسب نظامه الطبيعي، فالذين لا يؤمنون بهذه الحقيقة يكون لهم صراع دائمًا مع أهل الحق، فوردت أمثلة كثيرة في القرآن والسنة تذكيرًا بهم، ويتضح منها أن الأمر كله لله تعالى، ولم يخلق الله الدنيا للنزهة والتسلية، بل خلقها لاختبار أعماله وحياته، فإذا عمل الإنسان فيها عملاً حسنًا، وآمن بالله كرب وخالق له كان جزاؤه في الآخرة أحسن وأطيب.

مطالبة الإيمان بالغيب:

الإيمان بالله هو الإيمان بوحدانية الله تعالى، والإيمان برسوله، والإيمان بالآخرة، فالإيمان بالله للإنسان أصعب وأدق، لأنه مفطور على الإيمان بالرؤية، فإنه إذا رأى شيئًا أو اطلع عليه أو شاهده بعينه اعترف به وسلَّمه، فيكون سائر نشاطاته دائرًا حول المشاهدة والرؤية، فإذا واجه الإنسان في حياته مشكلةً معقدةً، وكان حلها خارجًا عن نطاقه، أو أصابه مرض لا يزيله الوسائل الإنسانية اعتقد الإنسان آنذاك أن هناك قوة خارقة للعادة، لا بد له من الركون إليها، والالتجاء إلى جنابها، لكن دأبه أن يتأثر بأي قوة على أساس مشاهدته ورؤيته، لأنه ليس متعودًا على الإيمان بالله، والتسليم له، يعمل بما يكون في

المشاهدة، بل الواقع أن القوة التي خلقت جميع الوسائل والأسباب هي مستورة عن أعيننا الظاهرة، وهو الله عز وجل الذي أودع في الأشياء تأثيرًا، وقوةً، فلا بد لنا أن نفهم أن الوسائل التي خلقت كيف تستطيع أن تساعد الإنسان، أو كيف يمكنها أن تقاوم قدرة الله تعالى، هذا هو الواقع الذي كشف القناع عنه سيدنا إبراهيم عليه السلام أمام قومه الوثنيين بكل وضوح أن لا قيمة للأصنام والأوثان، فإنها لا تدافع عن وجودها، فكيف تساعدكم؟

كرامة الإنسان:

إذا لم يعتبر الإنسان الله عز وجل وليًا وناصرًا تخبط ذهنه خبط عشواء، وكلما رأى بصيص أمل أو ومضة رجاء اعتقد أنه معقد آماله ومعقله، هذه هي الفكرة الإنسانية الخاطئة، التي رفضها الله تعالى بالأنبياء والرسل، فإنهم نصحوا الإنسانية أن الله واحد، وهو الذي يدير الكائنات بكاملها، وهو النافع والضار، فعلى الناس أن يسألوه، وهو الرب الملك القدوس، فعلينا أن نستسلم لأوامره، ونطيع أحكامه، هذا ما يقتضي منه كرامة الإنسان، فلنتق الله، لأنه هو الذي يملك الضرر وإلحاق الخسارة، ولنتصل به اتصالاً مباشرًا، لأنه هو الذي ينفع، وليس لأحد سواه قدرة على النفع والضرر والإعطاء والمنع، وكل ما عداه مخلوق له، فلا يمكن أن يعمل عملاً مثله.

غاية الدنيا والآخرة:

جعل الله الحياة الدنيا للابتلاء والامتحان، وجعل الآخرة

دار القرار، فمن فطانة الإنسان أن يعتقد الآخرة حياةً أبديةً، ويستعد لها أكثر فأكثر، لا الحياة الدنيا التي هي محدودة، فيفكر فيها كل وقت، لكن الواقع أن جميع مجهوداتنا، وأشغالنا ومساعينا تبذل لإجادة وإحسان هذه الحياة الدنيا، المحدودة الحقيرة، وقد جعل الله نظام الدنيا أن كل ما يكون في هذا الكون من راحة وطمأنينة يتوافر بالوسائل والأسباب، وكان القصد وراء ذلك أن يرى الله عز وجل: من ينهمك ويتورط في نيل الوسائل والأسباب للحياة الدنيا؟ ومن تكون الآخرة نصب عينيه؟ ولا ينسى ربه وخالقه؟

التركيز على الآخرة:

أكد الله تعالى في القرآن الكريم على الآخرة، وذكر الأمور والأشياء التي تؤديه إلى النجاة والفوز في الآخرة، فتناول ذكر القصص أيضًا التي تقرب فكرة الآخرة وأهميتها إلى ذهنه، وإن قصة أصحاب الكهف نموذج في هذا الشأن أنهم تظاهروا بإيمان خارق للعادة لإصلاح آخرتهم، وانقطعوا من كل شيئ وتوجهوا إلى الله تعالى، فأكرمهم الله تعالى بأن رفع عنهم مشكلاتهم بالإيمان بالله، كذلك قصة صاحبي الجنتين أيضًا مثال له، بحيث إن واحدًا منهما اعتبر جهده ووسائله أصلاً، ونسي هذه الحقيقة أن الله هو القادر الحقيقي في كل شيئ، فتكلم بكلمة إساء ة إلى الله، فأخذه الله نكال الدنيا، وأخبره بأنه لا يُسمح له بالإساءة إليه، فكما أن الله تعالى ينفع الإنسان ويكرمه بنعمه الكثيرة كذلك يضره ويلقيه في

خسارة، فكان في هذه القصة درس لأهل الإيمان بأن يستيقنوا ويدركوا بأهمية أن ما يملكون من أسباب وثروات ومناصب عالية كل ذلك بإذن الله وأمره، فلم يكن فيها نصيب مساعيهم إلا قليلاً، وهي ليست أساسًا فيها، بل الله تعالى هو الأساس.

وردت في القرآن الكريم قصص كثير من الأمم التي أسخطت الله تعالى، فعذبهم الله عذابًا شديدًا، فكان من ذكر هذه القصص في القرآن الكريم أننا إذا أردنا أن نعيش حياةً مطمئنةً في الدنيا والآخرة ونجتنب غضب الله وسخطه، فعلينا أن نعتبر من هذه القصص، ونزيل عنا النقائص التي تسبب إثارة غضب الله ثم إنزال عذابه.

أعمال المؤمنين والكافرين وعاقبتهم في الآخرة

اغترار بحسن العمل وعاقبته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا. ذلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[1].

أخبر الله تعالى في هذه الآيات بأبسط أسلوب عن الذين هم الأخسرون أعمالاً، وقد ضل سعيهم في الحياة الدنيا، ولم يدركوا هذه الحقيقة: ما يحدث في الدنيا، وماذا سيكون في الآخرة، وكانوا منهمكين في أعمالهم، وقد اعتبروا الدنيا ووسائلها غايتهم، ولم يفرقوا بين الحلال والحرام، وتبنوا كل منهج من الحياة كان أمامهم، ولم ينظروا إلى ما يحبه الله ويرضاه، بل اختاروا كل حلال وحرام لمصالحهم الذاتية، الواقع أن جهود هؤلاء الناس ذهبت سُدىً، وتبعثرت، لكن مما يُستغرب أنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ويعملون أعمالاً حسنةً، وهم على أحسن نظام، فنظرًا إلى هذا يذهبون في ذلك كل مذهب، ويكثرون من أموالهم

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣–١٠٤.

لزيادة شرفهم وعظمتهم، أو يختارون كل ما يشاؤون من طرق العيش، ويعتزون بها.

الجاحدون لآيات الله تعالى:

تدل الآية التالية على أن هؤلاء هم الذين كفروا بآيات الله تعالى، رغم أن آياته قد انتشرت في الأرض كلها، ويمكنهم أن يشاهدوها من طرائق قدد، وهي تخبر بأن منسِّق هذا النظام قوة أخرى، وهي تنسق كل شيئ بحكمة بالغة، وبصيرة تامة، لا يوجد فيه خلل، لا اضطراب فيه ولا صراع، كأنه نظام محكم متقن دقيق، فإن طلوع شمس وغروبها، وطلوع قمر وأفوله لا يحدث فيه خلل لثانية ولا دقيقة، كذلك نظام الصيف والشتاء وما وفر الله تعالى فيهما من تسهيلات وإمكانيات، وكيف تنبت الأشجار، وكيف تحصل موارد الرزق، وما هو مقدار الأمطار، كل هذا يعمل فيه نظام الله تعالى بحكمته البالغة، وجميع هذه الآيات أمام الناس، لكن الجاحدين لها قد أطبقوا عيونهم عنها، فلا يزالون يجحدون آيات الله تعالى الباهرة.

فالذين يجحدون آيات الله هم يجحدون يوم القيامة، فلا يؤمنون بالسؤال والجواب عند الله تعالى، ولا يوقنون بالقيام أمام ربهم، وتخبر الآية المذكورة أعلاه أن أمثال هؤلاء الناس في خسارة كبيرة، فإنهم يجدون جزاء أعمالهم، وتحبط جميع عباداتهم وهم لا يشعرون بها، فإنهم حينما تخرج أرواحهم ويموتون فلا يملكون مقدار ذرة أيضًا، وإن حيزت لهم الدنيا بحذافيرها، فلا يقدرون

على عيونهم ولا أجسامهم، ولا أي جزء من أجزائها، وتضيع جميع نشاطاتهم وأعمالهم وتنتهي أمورهم.

والذين يملكون قوةً وسطوةً في الدنيا، ولكنهم كانوا جاحدين لنعم الله تعالى، فلا يحملون يوم القيامة وزنًا، يقول الله تعالى: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[1]، ذلك أنهم لا يملكون شيئًا، بل يكونون صفر اليدين، لا قيمة لهم، ولا شأن لهم، وقد ذهبت أعمالهم وضاعت، وليس لديهم ما يستندون إليه، أو يقدمونه للخلاص من العذاب، هناك يعرفون خسارتهم وضررهم، لأن الآخرة لا تنفع فيها إلا الأعمال الصالحة، فإذا لم تكن الأعمال الصالحة فلا ملجأ للإنسان، وقد ذكر الله تعالى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم أن الله عز وجل يعامل الإنسان يوم القيامة حسب أعماله وأحواله، فإذا كانت أعماله صالحةً كانت عاقبته حسنةً، وإذا كان الأمر بالعكس خسر خسرانًا مبينًا.

عاقبة منكري الآيات والآخرة:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات كذلك عاقبة منكري الآيات الإلهية والآخرة أنهم يصلون سعيرًا، لأن أعمالهم قد حبطت، فلا تكون إلا صفرًا، وكان مأواهم جهنم، فلا يطرحهم الله تعالى في جهنم قسرًا، بل كان سببه أنهم جحدوا أوامر الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَاتَّخَذُواْ آيَاتِى

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٠٥.

وَرُسُلِي هُزُوًا﴾[١]، أي إنهم كانوا يستهزؤن بآيات الله ورسله، ويسخرون منهم في الدنيا، ولا يهتمون بالأمور التي تنفعهم في الآخرة، ويحمِّقون الأنبياء، ويعتبرون كلماتهم جنونًا وسفاهةً، وإذا نظرنا إلى مجتمعاتنا اليوم عرفنا أن الاستهزاء بأهل الدين قد عم وانتشر على كل مستوى، فالناس يقولون لهم: ما أحمق هؤلاء، فإنهم لا يفكرون في كسب أموالهم، ولا يدخرونها، ويشتغلون كل وقت بالصلاة والصيام، يا للأسف أن المسلمين اليوم قد تغيرت عقليتهم، فإنهم يسخرون من الدين، هؤلاء هم الذين كفروا بآيات الله تعالى، واستهزؤا بها وبرسل الله تعالى، وتشتمل كلمة "رسل الله" على الدعاة الذين يدعون الناس إلى الله، ويبلغون دين الله إلى أرجاء العالم، فكان الجاحدون لنعم الله تعالى يستهزؤن بأهل الدين، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، ويجدون كل نوع من النجاح والفلاح، فكان جزاء هؤلاء الناس جهنم، ولا يملكون في الآخرة شيئًا ينقذهم من عذاب جهنم.

أعمال المؤمنين وعاقبتهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[٢].

إن الذين يكونون مقابل المنكرين ليوم القيامة وآياته هم أهل الإيمان، وقد اختاروا الأعمال الصالحة في الحياة الدنيا، ولم يبالوا

---

[١] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٠٦.

[٢] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآيتان: ١٠٧–١٠٨.

بنعم الدنيا مقابل نعم الآخرة، بل عملوا أعمالاً تضمن لهم النجاح في الآخرة، وآمنوا إيمانًا أحرز لهم القبول والحظوة عند الله تعالى، يقول الله عزوجل عنهم: كانت لهم جنات الفردوس نزلاً، خالدين فيها، لا يبغون عنها حولاً، فلا يخرجون منها، ولا يريدون الذهاب إلى مكان آخر، أي لا يضطرون إلى أن يمكثوا هناك، سواءً أرادو أم لم يريدوا، فتكون هذه الإقامة سجنًا لهم، لا نعمةً، فهذا المكان هو الذي لا يبغون عنه ذهابًا إلى مكان آخر لجودته وحسنه وجمال موضعه.

تمثيل بليغ للكلمات الإلهية:

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1].

ضرب الله تعالى في هذه الآية مثالاً لقدرته، فإن قدرته وحكمته ونظامه الذي صنعه واسع، ومترامي الأطراف والنواحي، بحيث لو أصبحت البحار مدادًا، وكتبت بها كلمات الله لنفد المداد الذي صنع من البحار كلها، ولا تنفد كلمات الله تعالى، هنا وقفة تأمل أن مقدارًا قليلاً من المداد ينفد في كتابة شيئ، بالرغم من ذلك لو أصبحت البحار كلها مدادًا لا تنفد كلمات الله، بل تكتب بكل تسلسل، وليس الأمر فحسب أن مداد البحار ينفد، ويزول، بل أن مزيدًا من البحار إذا ضم إلى هذه البحار، وألحق بها ما نفدت كلمات الله تعالى.

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

موضع للتأمل:

إذا فكر إنسان في هذا الأمر تفكيرًا عابرًا، استغرب من مقدار كلمات الله التي ينفد من كتابتها مداد البحار، لكن كلمات الله لا تنفد، وإذا تأملها الإنسان أدرك أنه إذا سجل تفاصيل كل ذرة من ذرات الكون، واستعرض مزاياها وخصائصها، لم يكن نفاد مداد البحار مستحيلاً له، لأن هذا الكون واسع الجوانب، لا يدري كم توجد فيها من العوالم والكرات، وكم توجد فيها من المخلوقات والمعادن، والنبات، والحيوانات، فلو كتبت تفاصيل هذه الأشياء التي خلقها الله تعالى، وتأمل الإنسان أسباب خلقها، وصناعتها، ما هي طبعيتها؟ وما هي مزاياها؟ وما هي متطلباتها؟ وما هي حاجياتها؟ وما هي مواهبها؟ فهذه الأمور كلها هي كلمات الله تعالى، التي إذا كتبها الإنسان لنفد مداد البحار، ولا تنفد كلمات الله تعالى.

مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا﴾[1].

هذه الآية تدل على مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم، فالرسول تابع لله عزوجل، وخاضع لأمره، فليس معنى ذلك أن كل ما يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من أمور، وما يذكر

---

[1] القرآن الكريم، سورة الكهف، الآية: ١١٠.

من كبريائه، أو يقص من قصص الأمم الماضية، يفعل كل ذلك لمجرد قرابة أو علاقة حميمة، بل الواقع أن الله عزوجل اصطفاه من بين سائر خلقه، فهو رسول الله، غير أنه بشر، ويعيش مثل البشر، وليس ملكًا أو مخلوقًا آخر، فالفارق الأساسي بينه وبين عامة البشر أن الله تعالى يوحي إليه، وينزل عليه وحي إلهي، وإلا لا يكون بينه وبين الناس فرق، فإنه نال مكانةً خاصةً بين الناس على أساس رسالته الإلهية، وهذه الرسالة هي أن الله يخبر الناس بواسطة رسوله أن إلههم هو الله وحده، وهو يستحق كل نوع من الألوهية والربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، هذه هي الرسالة التي يبلغها الله تعالى بواسطة رسوله إلى الناس، وقد أخبر بأنهم إذا وضعوا نصب أعينهم هذه الرسالة أفلحوا ونجحوا في الدنيا والآخرة، وإلا كانت لهم خسارة فادحة في الآخرة.

بيان صريح:

دل آخر الآية على أن كل من يرجو لقاء الله، ويتمنى أن يرجع إلى الله عزوجل راضيًا مرضيًا، وينال رحمة الله تعالى فعليه أن يعمل أعمالاً صالحةً في الحياة الدنيا، ولا يعبد أحدًا سوى الله، ولا يعتبره جديرًا بالعبادة، ولا يخضع أمام أحد، بل عليه أن يخضع أمام الله تعالى ويعتبره وليًا وناصرًا.

فهرس المحتويات

المقدمة بقلم الشيخ السيد بلال عبد الحى الحسنى الندوي	٥
سورة الكهف: دراسة عامة	**١١**
فضائل سورة الكهف	١١
بين الكهف والغار	١١
غاية قصص القرآن	١٢
حكمة قصص سورة الكهف	١٢
أصحاب الكهف	١٦
دروس مستفادة من قصة أصحاب الكهف	١٧
صاحب الجنتين	١٨
ما شاء الله	١٩
قصة موسى والخضر عليهما السلام	١٩
سفينة الملاح	٢٠
قتل الغلام الصغير	٢١
إقامة الجدار	٢١
حكمة هذه القصص الثلاث	٢٢
غاية القصص الثلاث	٢٣

عبرة لمن اعتبر	٢٤
حكومة ذي القرنين	٢٥
سنة الله في الكون	**٢٦**
الإنسان مخيّر لا مسيّر	٢٧
نية الإنسان وعاطفته	٢٨
المخلوقات الهادفة	٢٩
غاية بعثة الأنبياء	٢٩
خصائص البعثة المحمدية	٣٠
سنة الله تعالى	٣٠
أنواع المصايب	٣٢
قدرة الله وقوته في الكون	**٣٣**
العلم علمان	٣٣
النظام التكوينى	٣٣
تغير النظام التكوينى	٣٤
النظام التشريعى	٣٤
الوسائل تابعة لمشيئة الله تعالى	٣٥
ضآلة الوسائل	٣٦
لا قيمة للجهود المادية تجاه النظام التكوينى	٣٧
نظام الله تعالى	٣٨
نظام الخير والشر	٣٨
الكبر والغرور	٣٩

الظاهر والباطن في الكون ٤١
منهجان لمشيئة الله تعالى ٤١
حكمة تكليف الإنسان ٤٢
إنه يعلم الجهر وما يخفى ٤٢
الظاهر والباطن ٤٣
غاية النظام الدنيوي ٤٤
سيطرة على نظام العالم ٤٥
مخلوقات الله تعالى ٤٦
ابتغاء وجه الله تعالى ٤٦
لا تنخدعوا من الظاهر ٤٧
أعمال الإنسان في الدنيا والآخرة ٥٠
الخالق الحقيقى ٥٠
أرض الحشر ٥١
تذكرة وموعظة ٥٢
النية أهميتها والحاجة إليها ٥٣
قدرة الله التامة ٥٥
لفتة خاصة ٥٦
عقيدة منكري الآخرة ٥٧
معنى الإيمان ٥٨
القرآن الكريم وافتراءات النصارى ٥٩
غاية المعجزات الإلهية ٦٠

فصاحة العرب وأسلوب القرآن المعجز	٦١
غايات نزول القرآن	٦٢
الفرق بين العلم والظن	٦٣
تسلية قرآنية للنبي صلى الله عليه وسلم	٦٤
الصراع بين الإيمان والمادية	٦٦
غاية الزينة	٦٧
جانب متناقض للمادية	٦٨
التدبر في خلق الكائنات	٦٩
ليس الظاهر أصلاً	٧١
خطأ الماديين	٧٢
فرق بين المؤمنين والكافرين في التمتع باللذات الدنيوية	٧٣
ضآلة الدنيا	٧٤
الإنسان خليفة الله في الأرض	٧٤
فكرة المادية والإسلامية	٧٥
فرصة ذهبية	٧٥
قصة أصحاب الكهف وما لها من نتائج وعبر	٧٧
من هم أصحاب الكهف؟	٧٩
نظام باطن لصيانة أصحاب الكهف	٨٠
أساس الهداية والضلال	٨١
عاقبة الكبر	٨٢
جائزة على العزيمة الصادقة	٨٢

نوم العافية	٨٢
كلب أصحاب الكهف	٨٣
تخوفات أصحاب الكهف	٨٤
لماذا ذكرت قصة أصحاب الكهف؟	٨٥
ردود عمل لأهل القرية	٨٥
عدد أصحاب الكهف	٨٦
توجيه مهم	٨٧
مدة النوم في الكهف	٨٨
جوانب متنوعة للعبرة في قصة أصحاب الكهف	٨٨
الهجرة والتوكل	٩٢
جزاء تضحيات أصحاب الكهف	٩٣
أسلوب الدعوة إلى الله وعاقبة المؤمنين والكافرين	**٩٤**
مكانة فقراء الصحابة رضى الله عنهم	٩٥
عاقبة المؤمنين والكافرين	٩٨
قصة صاحب الجنتين ومآل الجهود الإنسانية	**١٠٠**
خطأ الفكرة	١٠٠
موعظة صديق متدين	١٠١
نزول العذاب	١٠٢
ما هو الشرك؟	١٠٢
الله هو الشافي	١٠٣
التوكل على الله	١٠٤

الرضا بالقضاء والعمل للآخرة	١٠٥
فرق بين الإنسان والحيوان	١٠٦
حدود اختيار الوسائل	١٠٧
خطأ صاحب الجنتين	١٠٩
فرق بين قدرة الله واختيار الإنسان	١١٠
الحياة الدنيا ومشاهد القيامة	**١١٢**
مثال بليغ في القرآن الكريم	١١٣
مفخرة للإنسان في الدنيا	١١٣
أشياء ثابتة	١١٤
مشاهد القيامة	١١٥
أعمال خارقة للعادة	١١٦
تمادي إبليس	١١٧
توجيه إلى عامة الناس	١١٨
بين النظام الإنساني والنظام السماوي	**١١٩**
استكبار إبليس	١١٩
خطاب للناس	١٢٠
فرق بين النظامين: السماوي والإنسانى	١٢٠
خطأ أهل البدعة	١٢١
خطأ إبليس	١٢٣
غاية خلق الإنسان	١٢٤
الآلهة الكاذبة وعاقبة الكفار	**١٢٦**

قدرة الله تعالى	١٢٧
عاقبة المضلين والمجرمين	١٢٨
غاية أمثال القرآن	١٣٠
عائق في سبيل الهداية	١٣٠
مهمة بعثة الأنبياء	١٣١
حال الظالمين وعاقبتهم	١٣٢
خطورة التمرد وعاقبته	١٣٣
الغفور الرحيم وحكمة نزول العذاب على الأمم	١٣٤
قصة موسى والخضر عليهما السلام وما لها من دروس	**١٣٥**
حوت سيدنا موسى عليه السلام	١٣٦
الشيطان والنسيان	١٣٦
عودة إلى الغاية	١٣٧
تلمذة سيدنا موسى عليه السلام على الخضر	١٣٨
رحلة لطلب العلم	١٣٩
محطة أولى في الرحلة	١٤٠
محطة أخرى في الرحلة	١٤٠
محطة ثالثة في الرحلة	١٤١
سبب خرق السفينة	١٤٢
بركة كسب الحلال	١٤٣
سبب قتل الغلام	١٤٤
تأثير الصحبة	١٤٥

سبب سقوط الجدار	١٤٦
غاية القصص الثلاث	١٤٦
قدرة الله على تغيير النظام	١٤٧
المصائب: فرصة ذهبية لإصلاح النفوس	١٤٩
قصة ذي القرنين وما يستفاد منها	**١٥٠**
ذو القرنين على مطلع الشمس	١٥١
سد ذي القرنين ويأجوج ومأجوج	١٥١
تدبير ذي القرنين الحكيم	١٥٢
نصيحة ذي القرنين	١٥٢
امتداد فتنة يأجوج ومأجوج	١٥٣
جوانب ذات عبرة	١٥٤
غرور الوسائل	١٥٤
ربوبية الله تعالى والتركيز على الآخرة	**١٥٦**
عاقبة الكافرين	١٥٦
ربوبية الله تعالى	١٥٦
مطالبة الإيمان بالغيب	١٥٧
كرامة الإنسان	١٥٨
غاية الدنيا والآخرة	١٥٨
التركيز على الآخرة	١٥٩
أعمال المؤمنين والكافرين وعاقبتهم في الآخرة	**١٦١**
اغترار بحسن العمل وعاقبته	١٦١

الجاحدون لآيات الله تعالى	١٦٢
عاقبة منكري الآيات والآخرة	١٦٣
أعمال المؤمنين وعاقبتهم	١٦٤
تمثيل بليغ للكلمات الإلهية	١٦٥
موضع للتأمل	١٦٦
مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٦٦
بيان صريح	١٦٧
فهرس المحتويات	١٦٨